

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قراءات في الفكر الإسلامي

عرفات عبد الخبير الرميمة

رقم الايداع بدار الكتب الوطنية 98 / 2021 م .
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الاولى 1442 هـ / 2021 م .
مكتبة التاج / صنعاء

فهرس الموضوعات

3	1 - مقدمة
5	2 - الفكر الإسلامي وخصائصه
6	3 - تعريف الفكر الإسلامي
7	4 - معنى الفكر الإسلامي
9	5 - خصائص الفكر الإسلامي
13	6 - مرحل الفكر الإسلامي
13	7 - مرحلة التأسيس والتكوّن
14	8 - مرحلة النضج والازدهار
17	9 - مرحلة الذبول والشيخوخة
18	10 - الاستعمار الغربي للدول الإسلامية
20	11 - مرحلة الإحياء والتجديد والإصلاح الديني
23	12 - مرحلة الاستقلال عن الاستعمار الغربي
25	13 - مرحلة الصحوة الإسلامية وقيام الثورة الإيرانية
29	14 - العقل والدعوة للتفكير في القرآن
31	15 - التفكير في القرآن
34	16 - آفات التفكير التي نهى عنها القرآن
37	17 - الطرق المؤدية إلى آفات التفكير
42	18 - علاج القرآن لآفات التفكير
45	19 - ثقافة التعايش الآخر كضرورة
46	20 - من هو الآخر؟
47	21 - أهمية وجود الآخر في الحياة
48	22 - الذات والآخر
49	23 الآخر المخالف في ظل الإسلام
56	24 كيف نتعايش مع الآخر في الوقت الحاضر
56	25 - أساليب الحوار بالتي هي أحسن
63	26 - الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي
64	27 - معنى الثابت والمتغير لغة
65	28 - معنى الثابت والمتغير اصطلاحاً
66	29 - معنى المتغير لغة واصطلاحاً
67	30 - المقصود بالثابت والمتغير
68	31 - التجديد والاجتهاد في الفكر الديني
69	32 - معنى التجديد
70	33 - دوافع التجديد ومسوغاته
71	34 - الاجتهاد ومعناه
73	35 - الاجتهاد في الفكر الزيدي
74	36 - الخاتمة
77	37 - وجوه الاستعمار المتعددة : من الاستشراق إلى العولمة
77	38 - تعريف الاستشراق
78	39 - بدايات الاستشراق
80	40 - أهداف الاستشراق
83	41 - الأفكار الاستشراقية
84	42 - الاستعمار والاستشراق

43 -	وجوه الاستعمار الجديدة : ثقافة العولمة وعولمة الثقافة	87.....
44 -	مصطلح العولمة ومعناه	88.....
45 -	صورة الثقافة من خلال ثقافة الصورة	90.....
46 -	أخلاق العولمة وعولمة الاخلاق	92.....
47 -	مظاهر العولمة : الحرب الناعمة المفهوم والمصطلح	94.....
48 -	مفهوم القوة الناعمة	96.....
49 -	مصادر القوة الناعمة وأدواتها	97.....
50 -	الحرب الناعمة وتعريفها	99.....
51 -	سقوط النماذج وبداية عصر النهايات في الحضارة الغربية	103.....
52 -	كورونا هل كان المسار الأخير في نعش الحضارة الغربية	106.....
53 -	النهضة اليابانية : لماذا نجحت اليابان واخفق العرب	109.....
54 -	مقارنة بين النهضتين اليابانية والمصرية	110.....
55 -	المعجزة اليابانية	111.....
56 -	ما الذي فعله اليابانيون	112.....
57 -	كيف نهضت اليابان	113.....
58 -	إدراك الشعب الياباني خطر التدخل الاجنبي	114.....
59 -	محاور النهضة اليابانية الأربعة	115.....
60 -	صفقة القرن : عربة الاقتصاد قبل حسان السياسة	118.....
61 -	البذور التاريخية لصفقة القرن	121.....
62 -	بداية ظهور مصطلح صفقة القرن	123.....
63 -	ماهية الصفقة وحقيقتها	123.....
64 -	ملامح الصفقة وشكلها	125.....
65 -	سرقة التاريخ والتلاعب بالجغرافيا	126.....
66 -	آفاق ومالات صفقة القرن	131.....

مقدمة :

هذا الكتاب حصيلة قراءات تخصصية في الفكر الإسلامي منذ عدة سنوات وحصيلة كتابات في الموضوعات الفكرية والفلسفية والأدبية والاجتماعية منذ عدة أعوام ، وحصيلة خبرة تدريسية في جامعات تعز و عمران وصنعاء - وبعض الجامعات الخاصة - كل عام تم الاستفادة منه في نقد أخطاء الاعوام السابقة والاستفادة منها للأعوام القادمة ، وتم تنويع الموضوعات وتغييرها ، بحسب المستجدات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية على الساحة المحلية والدولية ، مواكبة لروح التطور والاحداث التي فرضت نفسها وكانت أكثر حضوراً من غيرها في الواقع العربي الإسلامي - أو حتى في ساحة الدرس الفكري - وإيماناً بالمقولة التي ترى بأن التغيير هو الثابت الوحيد في الكون ، باعتباره فطره انسانية ذات ابعاد إلهية ، كان تغيير الموضوعات واستبدالها بما له علاقة مباشرة بالواقع وتبعاً لذلك تم تغيير بعض وجهات النظر حيال بعض القضايا ، فالإنسانية في تطورها لا تنزل في نهر الواقع المعاش مرتين بحسب المقولة التي تنسب للفيلسوف اليوناني هراقليطيس .

وكان الغرض المتوخى في كل سنة دراسية من خلال الدرس الفكري هو : ان نعلم الطالب كيف يفكر - لا أن نعلمه حفظ أفكار معينه - وكيف يستخدم عقله بعيداً عن الوصاية من أي طرف كان ، وكيف يكون رأياً وكيف يستطيع الدفاع عنه ، وكيف يحترم رأي الآخرين ، والأهم فيما نعلمه للطالب الجامعي أن نجعل منه إنساناً حقيقياً مضموناً وجوهراً - بعد أن جعل منه الواقع إنساناً بالطول والعرض فقط - يؤمن بالقيمة الإنسانية معياراً جامعاً تؤدي للتعایش مع المختلف على أرضيه وطنية إنسانية ودينية مشتركة . لقد تقصّدتنا تبسيط الموضوعات الفكرية - قدر الامكان - وربطها بالواقع المعاش ومحاولة تطبيقها في حل المشاكل اليومية التي تواجه الكل واعطاء صورة واضحة تقترب قدر الامكان من الفكر الإسلامي باعتباره حصيلة تفاعل بين النص القرآني وبين العقل الإسلامي الذي حاول التصدي للمشاكل المثارة في كل مرحلة مر بها ذلك الفكر من مراحل تكوينه المختلفة ، لقد أن الأوان لإعادة الاعتبار لمادة الفكر الإسلامي وهذا ما سوف نحاوله من خلال قراءات معينة فيها ، نحاول من خلالها ان نعرّف الطالب بآليات العقل الإسلامي وكيف يفكر التفكير المنطقي السليم الذي يؤدي به إلى نتائج محموده من خلال تعريفات الفكر الإسلامي المختلفة ومعرفة مقوماته وخصائصه ومراحل تكوّنه وتتبع التفكير في القرآن موضحين الآفات الفكرية التي يقع فيها الفرد والمجتمع والتي نهى عنها

القرآن وحذر منها وسوف نحاول أن نتعرّف على مفهوم الهوية من خلال معرفتنا للآخر المخالف بغرض التعايش الذي تفتقده العديد من المجتمعات الإسلامية وحسبي أن ما يميّز هذا المؤلف أنه الوحيد تقريباً الذي أدخل موضوع الآخر ضمن مواضيع الفكر الإسلامي نظراً لأهميته والحاجة الملحة للتعايش مع المختلف في المجتمعات العربية والإسلامية .

وتناول الكتاب موضوع من أهم موضوعات الفكر الإسلامي وهو الثابت والمتغيّر في ذلك الفكر، لأن الشريعة الإسلامية الغراء جمعت في داخلها بين الثبات والتغيّر وتلك واحدة من مظاهر الإعجاز التشريعي الذي لا يمكن أن يتوافر إلا لها فقط لأنها ربانية موحى بها من عند الله ، فالإسلام يوازن منذ ظهوره بين الثابت الباقي من أحكامه والمتغير منها بتغيّر الزمان، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، فيتحول الثابت إلى مجرد أفكار جامدة ويتحول المتغيّر إلى انفلات غير محمود العواقب .

بعد ذلك نتعرّف على وجوه الاستعمار المتعددة : من الاستشراق إلى العولمة محاولين تتبع الأساليب الاستعمارية للغزو الفكري للعقل الإسلامي من خلال الاستشراق مروراً بالتبشير وانتهاءً بالعولمة باعتبارها شكلاً مطوراً من أشكال الاستعمار الغربي وتهدف إلى استعمار العقول والأفكار والوعي للشعوب - بدلاً من استعمار الأرض الذي لم يعد مجدياً بالنسبة لها - وبالتالي يسهل السيطرة على تلك الشعوب ونهب مقدراتها وهي مطيعة وراضية من خلال الترويج لثقافة العولمة ومن خلال تلك الثقافة تم الترويج لما يعرف بالحرب الناعمة التي سنحاول الاقتراب منها لمعرفة بشكل واسع وكيف تم استخدامها في العدوان على اليمن وسوف نتعرّف كذلك على أسباب نجاح النهضة اليابانية من اجل معرفة السبب الحقيقي لإخفاق النهضة العربية المنشودة . لقد حاولنا في هذا الجهد المتواضع الابتعاد عن التعقيد من خلال عدم استخدام المصطلحات الغير مفهومه والكتابة للناشئة وطلاب الجامعة وليس لأهل الذكر والتخصص آملين أن يحقق المقرر الهدف المطلوب منه . وفي الاخير نقول : ان كل جهد انساني - بحكم انه كذلك - معرض للنقص ، وكما قال القاضي عبد الرحيم البيساني وهو يعتذر إلى العماد الأصفهاني عن كلام استدركه عليه: "إني رأيت انه لا يكتب انسان كتاباً في يومه الا قال في غده : لو غيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من اعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " نحمد الله ونثني عليه على كل حال كما قال سبحانه : {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {الصفات-180-182.

الفكر الإسلامي وخصائصه

ما يشبه المدخل :

أخذ موضوع الفكر مساحةً واسعةً من جهود العلماء والمفكرين قديماً وحديثاً، والتراث الإسلامي غزيرٌ بأراء العلماء وتصوّراتهم وأفكارهم في شتى المجالات، ويجد القارئ للتراث الإسلامي هذا جلياً في كتب علوم القرآن والتفسير، ومصنّفات علوم الحديث، والآراء الفقهية - في كتب الفقه وعلم أصول الفقه - وفي كتب علم الكلام وأصول الدين وحتى الكتب المنقولة من الثقافات المختلفة كالثقافة الهندية والفارسية واليونانية .

وقد اهتم المسلمون بتتبّع الحركة الفكرية عبر التاريخ ، فوقفوا على أصول الفكر وبيّنوا ضوابطه، وكشفوا عن خصائصه، وعقدوا المقارنات بين الفكر الإسلامي والفكر الإنساني العالمي، وذلك بهدف بيان الصورة الأصلية للفكر الإسلامي والحالة التي يجدر البناء عليها، خاصةً في ظلّ ما يشهده العالم من تجاذبات فكرية وحضارية تظهر في المصنّفات الحديثة، والمحاورات المعاصرة حول ذلك الفكر وتميّزه ، وينادي المختصون بضرورة أن يخوض غمار الحديث عن أصالة الفكر الإسلامي اصحاب الاختصاص - أهل الذكر بحسب اللفظ القرآني - من المؤهلين والقادرين على النظر في المستجدات والنّوازل، وأن يكون لديهم القدرة على التمييز بين الغث والسّمين في الاتجاهات الفكرية المعاصرة .

والفكر الإسلامي الذي نعينه : هو الفكر المرتبط بالدين الإسلامي ورسالته، وبمصادره التشريعية كافة، وبكل ما انتجه العقل المسلم من أفكار منذ موت النبي - صلى الله عليه وعلى آله - وحتى اليوم ويستظل ذلك الفكر بالنص الديني في تفريعاته ويرتكز عليه في تأسيسه ويحمل رؤية الإسلام، وتصوره في شتى مجالات الحياة، فهو يتخذ من القرآن والسنة - الموافقة له - وشتى مصادر التشريع مرجعيةً له، وقد مر الفكر الإسلامي بعدة مراحل عبر تاريخ الدعوة الطويل إلى يومنا هذا، وتميز عن غيره من الأفكار الإنسانية الوضعية، وترتب عليه نتائج إيجابية أيضاً .

تعريف الفكر :

الفكر مصطلحٌ نسمعه كثيراً في حياتنا المعاشة ، وباستقراء معناه في معاجم اللغة نجد أنه يدلّ على إعمال العقل في مقدّمات معلومة، وترتيبها بشكل يُوصله إلى كشف مجهول، وهذا هو جوهر تعريف الفكر الذي يعني : إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهولٍ أو إعمال الفكر في مشكلةٍ للتوصل إلى حلّها ويقال : فكّر في الأمر : أعمل عقله فيه ورتب

بعض ما يعلم ليصل إلى ما لا يعلم ، والتفكر التأمل ويقال : رجلٌ فكير : أي كثير التفكير وقال بعض اللغويون : الفكر مقلوب عن الفك ، ويستعمل الفكر في المعاني وهو فك الأمور وبحثها للوصول إلى حقيقتها (1) . ويمكن أن نعرّف الفكر أيضاً بأنه: إمعان النظر والتأمل في الأشياء الحسيّة - كخسوف القمر وصدأ الحديد مثلاً - والمعنويّة - كأسباب سقوط الدول والإمبراطوريات - من أجل الوصول إلى الأسباب التي كانت وراء بروز الظواهر الحسية والمعنوية " ويغلب أن يُطلق على عملية إمعان النظر اسم (التّفكر) وعلى نتاج هذه العملية اسم (الفكر)" (2) .

والفكرة عن شيء هي الصورة الذهنيّة المتشكّلة عنه داخل العقل، و الأفكار هي: الآراء التي تتكون في عقل الإنسان نتيجة تدبّر الأشياء والتأمّل والتفكّر فيها، وإعمال العقل وصياغتها على شكل نصوص معبر عنها بواسطة اللغة وما سبق يعني إنّ الفكر هو إعمال المرء لقدراته العقلية في محصله الثقافي؛ بهدف إيجاد بدائل لأمر ما، أو حلّ لمشكلات موجودة في الواقع، أو كشف للعلاقات بين الأشياء، وتّحديد القدر المشترك بينها، ويمكن الاستنتاج بأنّ الفكر ليس مصطلحاً رديفاً للأحكام والمبادئ، ولا بديلاً عن الثقافة أو العلم، وإنما هو نشاطٌ عقليٌّ يُجري صوراً ذهنيّةً لمسائلٍ محيطيّةٍ من أحداثٍ وأشياءٍ، كما يهدف إلى أخذ العبرة من أحداث الماضي والاستفادة منها في الحاضر و توسيع الآفاق في النظرة إلى المستقبل.

معنى الفكر الإسلامي :

يعد الفكر من أهم الخصائص والمميزات التي تميّز الإنسان عن باقي المخلوقات وتجعل له السيادة عليها وتسخرّها لصالحه باعتباره خليفة الله في أرضه ، و مصطلح الفكر الإسلامي من المصطلحات التي ظهرت حديثاً وهو يعني كل ما أنتج فكر المسلمين منذ بعثة الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله والعالم والإنسان وهو يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية ، عقيدة وشريعة وسلوكاً (3) .

ويعرّف البعض الفكر الإسلامي بأنه " النتاج العقلي الناشئ في المجتمع الإسلامي في ظل القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح " ويحاول أن يوضح مفهومه قائلاً : بأن الفكر الإسلامي هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لفهم الإسلام وشرحه في مصادره الأصلية من القرآن والسنة الصحيحة من خلال التالي :

1- إما تفقهاً واستنباطاً لأحكام دينية عن صلة الإنسان بخالقه في العبادة أو صلته بأخيه الإنسان في المعاملات أو لمعالجة أحداث جرت لم تعرف

بذاتها في تاريخ الجماعة الإسلامية على عهد رسول الله وعهد الصحابة أو تبريراً لتصرفات خاصة صورت وتمت أو تصور تحت تأثير عوارض أخرى .

2 - وإما توفيقاً بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب وبين أفكار اجنبية دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر بعد أن قُبلت تلك الأفكار كمصدر آخر للتوجيه .

3 - أو دفاعاً عن العقائد الإسلامية التي وردت فيه ، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها حاولت أن تحتل منزلة في الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر يدعو لإعمال الفكر للمحافظة على الطابع الإسلامي (4) .

ويرى بعض الدارسين للفكر الإسلامي أن التعريف المناسب له هو " كل الاجتهادات والانتاجات والإبداعات الفكرية التي تلتزم بالإسلام مصدراً ومرجعاً أساسياً لها " (5) .

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن الفكر يكون فكراً إسلامياً : عندما يكون المفكر مؤمناً بالإسلام ومقتنعاً بمبادئه و يُعْمَلُ المسلم فكره في المصادر الإسلامية، ويكون نتاجه الفكري مؤسساً على تلك المصادر، و عندما يُعْمَلُ المفكر المسلم فكره في المصادر غير الإسلامية، ولكنه يستند في تقييمه وأحكامه ومواقفه إلى أساسيات الإسلام عقيدة وشريعة ، يكون فكره فكراً إسلامياً أيضاً ، وعليه لا يمكن أن نطلق على فهم المستشرقين الدارسين للإسلام، ولا استنباطاتهم، ولا أحكامهم، فكراً إسلامياً وكذلك لا يعتبر فكر المسلمين المتأثرين بأصول الفلسفات غير الإسلامية فكراً إسلامياً بناءً على ما سبق ذكره (6) .

لقد كان الفكر الإسلامي في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية منفتحاً على الفكر الإنساني ، متفاعلاً مع الحضارات الأخرى في عصورها المختلفة - خصوصاً حضارات الإغريق والفرس والهند - مقتبساً عنها ومهذباً لها بما يناسب العقيدة الإسلامية ولذلك كان قادراً على حفظ هويته الإسلامية التي تميزه عن الشعوب الأخرى من خلال أصالة المنهج وقوامة الفكرة حتى في احلك الظروف التي تعرّض لها في فترات الغزو المغولي والصليبي أو الاستعمار الغربي وقد استطاعت الأمة الإسلامية أن تبني حضارة إنسانية عالمية عظيمة بفكرها الحر وبعلمائها الأفاضل وفلاسفتها وفقهائها ومتكلميها في مختلف المجالات وكانت من أكثر حضارات العالم - في عصرها - رشداً واستنارة و عدالة واتزاناً في نشاطاتها الإنسانية المختلفة تشبهاً بثوابتها وقيمها الإسلامية وتكيفاً مع مستجدات العصور التي مرت فيها واستطاعت أن تنير للبشرية دروبها المظلمة في العصور الوسطى

وكانت بحق الأساس المتين التي قامت عليه النهضة الاوربية وأخذت من علمها و تعاليمها وفلسفتها الكثير الذي ساعدها على النهوض .

خصائص الفكر الإسلامي :

يتميّز الفكر الإسلامي عن غيره من المدارس الفكرية الأخرى، ومنشأ هذا التميّز أنّ له أصولاً تأسس عليها وله مقومات ودعائم قام وارتكز عليها والأصول التي قام عليها الفكر الإسلامي هي محاولته فهم القرآن والسنة الصحيحة - التي لا تعارض صحيح المنقول والمعقول - وبقيّة مصادر التشريع التي أعتمدها فقهاء الإسلام في مدارسهم المختلفة ، أما مقومات ذلك الفكر فهي العقيدة التوحيدية الإسلامية وكذلك الأخلاق القرآنية - التي لا نجد لها مثيلاً في كل زمان ومكان وفي كل ما دعت إليه وأمرت به - كل ذلك بنى الأمة الإسلامية على أساس متين وأظهر ذلك البناء في أبهى حلة والشيء الذي تميّز به الفكر الإسلامي عن غيره هو ارتباطه الوثيق والمباشر بالقرآن الكريم وبكل تعليماته تعقلاً وتدبيراً وفهماً وسلوكاً وهذا الارتباط هو سبب قوّته وعنوان تميّزه ، فالقرآن باعتباره نصّاً لغوياً يمكن أن نصفه بأنه " يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصّاً محورياً . وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة النص ، بمعنى أنها حضارة انبنت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه " (7) .

إنّ الدّين هو الرباط بين السماء والأرض ، بين الخالق والمخلوق وهو الوضع الإلهي الذي يقود ذوي العقول السليمة إلى الاختيار المحمود في شؤون الدنيا والآخرة، و يمكن القول بثقة تامة أن النص القرآني هو المصدر الرئيس للفكر العربي الإسلامي - ويطلق عليه البعض تسمية الفلسفة العربية الإسلامية - ومن خلال محاولة فهم وتأويل آياته المختلفة - عن الله والإنسان والعالم - استمدت تلك الفلسفة ماهيتها وهويتها وكونت شخصيتها المستقلة التي ميزتها عن الفلسفات السابقة ، فجميع من أهتم بالتفكير الفلسفي في الإسلام قد حاول أن يستند إلى القرآن وبذلك شغلت حقائقه كل نواحي الفكر الإسلامي - تجريبياً كان أم نظرياً - واخذ النص القرآني يمد كل صاحب فكرة إما بحقائق مؤيدة لمذهبه أو بحقائق تخالفه ولكنه كان دائماً مركز الدائرة في كل الأفكار والقضايا والمشكلات التي ناقشها المفكرين والفلاسفة المسلمين ، كل مفكر أو فقيه - أو كل فرقة أو جماعة فكرية - ترجع إليه لأخذ ما يؤيد وجهة نظره ودحض وجهات النظر المخالفة .

ويمكن إجمال خصائص الفكر الإسلامي بالتالي :

1 - ربانية المنهج والغاية وبشرية التطبيق والوسيلة:

فالفكر الإسلامي رباني في غاياته ومناهجه، لأن الوحي المكتوب في القرآن الكريم هو مصدر ذلك الفكر، وكل قضاياه تجد لها سنداً فيه وكما قال الله تعالى: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ). ولذلك كل فكر لا ينطلق من فهمه لمراد الله في القرآن ولا يصدر عنه ، لا يمكن أن نسميه فكراً إسلامياً ولو كان منتجه مسلماً .

2 - الوضوح:

و يمتاز الفكر في الإسلام بوضوح المحتوى والأهداف والوسائل، وهو يسير في طريق مواز للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومنسجم مع المهمة التي انتدب الله الإنسان لتحقيقها، وهي خلافة الله في أرضه عن طريق عمارة الأرض بالحق والعدل، قال الله تعالى: (وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

فالفكر الإسلامي من مهامه أن يوضح للمسلمين المهمة التي بعث الله الرسل من أجلها وهي توحيده وعبادته وحدة وتحقيق الخلافة في الأرض .

3 - الشمول:

لأنه يتناول كل شؤون الحياة المادية في الدنيا ويستوعب كل القضايا الروحية ومسائل الآخرة، ويوجه خطابه الفكري إلى كل الشعوب - أفراداً وجماعات - ولا يقف عند زمن دون آخر ولا يتوقع في مكان دون سواه ، فالفكر الإسلامي " يؤمن بتكامل وحداته وعناصره المختلفة والقائمه على الهدف الأساسي للفكر وهويته : شخصية الفرد وبناء المجتمع " (8) .

والمثال على ذلك: إذا أراد المسلم أن يتزوج يجد أن هناك أحكاماً للخطبة، ثم أحكاماً للزواج وإذا حملت زوجته يجد أن هناك أحكاماً للجنين، ثم أحكاماً للمولود، ثم هناك أحكام للحضانة والرضاع، وهناك تفصيل لأحكام تربية الأولاد، وتفصيل لأحكام النفقات، وأحكام الأسرة وفي حالة اختلاف الزوجين هناك أحكام للقضاء، فإذا رغبنا في الانفصال فهناك أحكام للطلاق، فإذا مات أحدهما فهناك أحكام للجناز، ثم هناك تفصيل للميراث ... وهكذا إلى درجة أنك لا تصل إلى طريق مسدود ، فهذا هو الشمول المقصود.

4 - التوازن والتوسط والاعتدال:

وتتبع هذه الميزة من كون المسلم يُحْكَم أفكاره وتصوّراته الذهنية من وسطية رسالة الإسلام واعتداله، قال الله عز وجل : قال (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، فالفكر الإسلامي لا إفراط فيه في جوانب ولا تفريط فيه في جوانب أخرى ، بل موازنة بين متطلبات الجسد المادية الدنيوية وأشواق

الروح الأخروية وفضاءات العقل، كما يحفظ هذا التوازن في نظريته للحقوق والواجبات، وكذلك في مجال حقوق الفرد وواجباته وحقوق الجماعة وواجباتها، ويجري كل ذلك على نسق فريدٍ منسجمٍ مع روح رسالة الإسلام الوسطية " وقد انعكس منهج الوسطية والاعتدال على الفكر الإسلامي لتكون سمة من سماته وإحدى خصائصه الهامة وابرز معالمه التوفيق بين الوجهين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية " (9).

وقد وزن الإسلام في تشريعاته بين ثنائيات منها: العقل والقلب، والمادة والروح، والدنيا والآخرة، ومصالح الفرد ومصالح المجموع، كل ذلك في وإطار وسطية متوازنة.

5. الثبات والواقعية:

الفكر في الإسلام ليس خاضعاً للتبديل أو التغيير حسب الأهواء والأمزجة، بل هو فكرٌ ثابتٌ حيث يجب الثبات كما في العقائد والأوامر والنواهي القطعية، لكنه مرّنٌ في كثير من القضايا الفقهية على اعتبار أن الفقه في الإسلام متجددٌ في كثير من الفروع والجزئيات، كما أن الفكر الإسلامي قد تصدى للأفكار الدخيلة التي وقفت عائقاً أمام نهضة المجتمع ومصالح العباد وهذا ما يُعرف بالثابت والمتحوّل، فالثوابت: هي العناصر أو الأشياء التي لا تتغير ولا تتبدل مع مرور الزمن وتتميز بالديمومة والاستقرار مثال ذلك: العقائد والاخلاق. أم المتحوّل: فهي العناصر أو الأشياء التي تتبدّل وتتغير بتغير الزمان أو المكان، فقد تصلح لزمان دون زمن ولمكان دون آخر وهكذا، مثال ذلك بعض الاحكام الفقهية المتعلقة بالمعاملات.

يُقسم الدين إلى عقيدة وشريعة، أما العقيدة فهي الجانب النظري الإخباري من الدين وأما الشريعة فهي الجانب العملي منه، وعليه فواقعية العقيدة تعني مطابقة الفكرة للواقع، أي صدقيتها. ومن معاني واقعية العقيدة الإسلامية أنها تراعي فطرة الإنسان وقدراته العقلية فلم تكلفه بما لا يطيق عقله، من هنا نجد أن أساسيات العقيدة الإسلامية تُدرك ببساطة من قبل الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، ولا يضطر المسلم إلى أن يسلك متاهات الفلسفة ليقيم الدليل على صدق عقيدته؛ فإله واحد سميع عليم بصير... الخ.

أما واقعية الشريعة، فمن معانيها أنها تتطلق في معالجاتها من فطرة الإنسان، على نقيض المدارس المثالية التي تكلف الإنسان ما لا يطيق، وعلى نقيض المدارس المادية العبيثية التي لا تراعي خلق الإنسان وخصائصه وفطرته.

6 - احترام العقل:

يحتلّ العقل في الفكر الإسلامي مكانةً رفيعةً، فهو آلة النتاج الفكري، وعليه يعوّل في الفهم والكشف والاستنباط سواءً في التأمّل في عجائب الكون، أو في التدبّر للنصوص الشرعية لاستخلاص مقاصدها وبيان دلالاتها، وقد جعل الإسلام العقل مناط التكليف، ورتّب على الإنسان مسؤوليةً في الاستخدام الأمثل له و الفكر الإسلامي فكرٌ علمي يدعو إلى استخدام العقل ويربط بين الاسباب والمسببات ويرفض تصديق الاساطير والشعوذات والخرافة ويجمع بين العلم والإيمان ويطالب بالدليل والبرهان عملاً بقوله تعالى " قل هاتوا برهانكم " يفحص ويحلل وينقد ويمارس التحليل الرياضي ولا يستسلم أمام التفسيرات الغيبية ما لم ترتبط بالنصوص القطعية ويتلخّص المنهج العلمي للبحث عند مفكري الإسلام في قاعدة تقول " إن كنت ناقلًا فالصحة أو مدعيًا فالدليل " (10).

وخلاصة ما سبق : يمكن أن نرى خصائص الفكر الإسلامي في المصنفات التي كتبها مفكرون في جميع المجالات الكلامية والفقهية والفلسفية والسياسية والأدبية واللغوية وكل ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية . حيث صنّف الإمام الماوردي كتاباً فريداً من نوعه في أدب الدنيا والدين، جمع فيه بين السياسة الشرعية والفكر السياسي والتربوي، وكذلك جمع الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ما يفيد المسلم في دينه ودنياه وآخرته، كما أبدع المفكر الإسلامي ابن خلدون في التصنيف في مجال الفكر الاجتماعي والعمران البشري، في كتابه الشهير بالمقدمة وهذا غيضٌ من فيض مما أنتجه الفكر الإسلامي للحضارة البشرية .

الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي :

من المهم أن يعرف الطالب ويدرك أن هناك فرقاً و اختلافاً بين الإسلام وبين تاريخ الإسلام وبين الدين وبين الفكر الديني ، فالإسلام هو دين الله للإنسان في كل العصور والازمان والذي جاءت به كل الرسل والانبياء من لدن آدم إلى خاتم الانبياء ، أما تاريخ الإسلام فهو تاريخ بشر يخطئون ويصيبون في فهمهم للإسلام وفي تفسيرهم له في سلوكهم اليومي وحياتهم المعاشة . والدين هو التعاليم التي أتت من الخالق إلى المخلوق عن طريق الرسل والكتب المنزلة من اجل ذلك فالدين كامل [لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ] {فصلت:42} لأنه من الله تعالى مصدر الكمال المطلق ومنبعه .

أما الفكر الديني فيعني : فهم البشر للدين وتفسيرهم لذلك الفهم ومعلوم أن فهم البشر للدين يختلف باختلاف الزمان والمكان والأدوات المعرفية

المتوافرة - التي تساعد البشر على الفهم - واختلاف المشكلات والمصالح أيضاً وهذا الفهم ناقص وترتبط بظروف الإنسان وحالته النفسية والمصالح التي يدافع عنها ، الدين الإلهي ثابت لكن الفكر الديني متقلب ومتحول ومتغير وفقاً للظروف والعادات والتقاليد وحوادث الزمان وتطورات المكان فالدين شي والفكر الديني شي آخر تماماً مختلف عنه كل الاختلاف والمأساة الحقيقية التي يعيشها المسلمون في كل عصر أنهم وضعوا الفكر الديني فوق الدين ومن ثم تعاملوا مع الفكر الديني وتجاهلوا البحث في الدين ذاته ، وعيب بعض الجماعات الدينية أنها لا تفرق بين الدين وبين فهمها للدين وتقدم فهمها للدين باعتباره ديناً وهذا هو السبب في ظهور القاعدة سابقاً وداعش حالياً ، التي شوهدت الإسلام - وبإسم الإسلام - ولو أنهم ادركوا ذلك الفرق وقالوا للناس أن هذا هو فهمنا للإسلام وليس الإسلام كما قدمه القرآن لأنتفت كل التهم التي وصمت الإسلام وربطته بالإرهاب وخلقت لدى العالم ما سُمي بالإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام .

ومن المؤسف أن كثيراً من الباحثين في الفكر الإسلامي القديم والحديث وقعوا في خطأ عدم التفريق بين الدين الإسلامي والفكر الإسلامي ، فهم عندما يتحدثون عن الفكر الإسلامي يخلطونه بمبادئ الإسلام : القرآن والسنة الصحيحة المفسرة له ، دون ان يضعوا خطأً فاصلاً بين الأصول الإسلامية والفكر الناتج عنها والتفاسير التي تدور حولها (11) .

فالإسلام هو ما دلت عليه نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - والسنة النبوية العملية المفسرة له والتي لا تتناقض معه - وما سوى ذلك مما فيه اختلاف واخذ ورد فهي تندرج في إطار الفكر الإسلامي البشري القائم على الاجتهادات والآراء والترجيحات وتخضع للنقد والمراجعة والتمحيص ويؤخذ منها ويُرد ، أياً كان أصحابها وأياً كان مقامهم وعددهم (12) .

مراحل الفكر الإسلامي :

لا يمكن تحقيق مراحل الفكر الإسلامي بشكل دقيق ، لكننا سوف نحاول أن نفعل ذلك بشكل تقريبي و يمكن حصر تلك المراحل إجمالاً بالتالي :

1 - مرحلة التأسيس و التكوّن : بدأت ملامح الفكر الإسلامي بالظهور بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وانقطاع الوحي الذي كان يعالج كل المشاكل الملحة في واقع المسلمين حال ظهورها أولاً بأول وبدأ إطلاق العنان للعقل الذي تربي على تلقي الوحي في عصر النبوة من اجل أن يمارس دوره في الاستدلال واستنباط الحلول للمشكلات التي سوف تواجه المسلمين وبدأت الخلافات تظهر نتيجة لاختلاف أفهام المسلمين في حل

المشاكل التي واجهتهم في واقعهم العملي المعاش وخصوصا المسائل السياسية وبعض التطبيقات العملية للنصوص - كاختلافهم فيما يتعلق بحرب مانعي الزكاة مثلاً في عهد ابو بكر - وأولى المشكلات الملحة التي واجهت الفكر الإسلامي واختلف فيها المسلمون كانت مسألة من يخلف النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بعد موته سواء بين المهاجرين والانصار أو داخل فريق المهاجرين انفسهم ، لكن تلك الخلافات تأدلجت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان وتعد " الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان مفتاح كل الخلافات السياسية والعقائدية في المجتمع الإسلامي " (13) .

وتوالى الصراعات بين المسلمين حول فهمهم وتأويلهم للقرآن وبعض الاحاديث وظهرت العصبية التي كانت سائدة قبل ظهور الإسلام وقامت على أثرها حروب اقتتل فيها المسلمون، منها موقعة الجمل (36هـ) وموقعة صفين (37هـ) وما حدث فيها من انشقاق الخوارج عن الإمام علي - كرم الله وجهه - لقبوله التحكيم، بعدها استأثر معاوية بالحكم وجعل منه وراثته أموية خالصة وملكاً عضواً ، فتلبس السياسية ومزق عباءة الدين .

وقد ثارت الأسئلة حينها حول قتل النفس المسلمة باعتبارها كبيرة من الكبائر التي حرمها الله تعالى، كانت المناقشات تدور بين المسلمين حول الكبائر مثار جدل كبير وكثرت حولها الآراء والاجتهادات وقد تركزت حول كبيرتي القتل - باعتبار ما حدث بين المسلمين من أيام مقتل الخليفة الثالث إلى معركة صفين - ولكثرة من قتل في تلك المعارك من المسلمين، وكبيرة الزنا بسبب ما عاشه المجتمع العربي الإسلامي في أيام الدولة الأموية من ترف ولهو وبذخ بفعل الفتوحات الإسلامية وتدفق الأموال الطائلة إلى خزائن الدولة الإسلامية، من أجل ذلك، كان المجتمع الإسلامي تواقاً لسماع حكم الشرع القاطع حول مرتكب الكبيرة : هل قاتل النفس المسلمة مؤمن أم كافر؟ وهل الزاني مؤمن أم كافر؟ تنوعت الفتاوى بين الحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر - كما أفتى بذلك الخوارج - وبالإيمان - كما قالت المرجئة - فالخوارج جعلت الإيمان قائماً على ركنيين متلازمين : الاعتقاد والعمل معا وعليه فان : مرتكب الكبيرة عندهم كافر لان عمله نافي اعتقاده، إما المرجئة فان الإيمان عندها مجرد اعتقاد داخلي فقط وعليه فإن الإقرار باللسان والقيام بأعمال ليست جزءاً من الإيمان فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن (14) .

ونتيجة لانتشار الإسلام في بيئات متعددة لها معتقدات سابقة وثقافات وفلسفات مختلفة - لم يعهدها المسلمون - ونتيجة لاختلاط المسلمين مع غيرهم من الشعوب الأخرى، حدث تفاعل بين فهم المسلمين لنصوص

القرآن وبعض الاحاديث وبين بعض المعتقدات والفلسفات التي تم ترجمتها - في نهاية القرن الهجري الاول وبداية القرن الثاني - وظهرت اولى مقولات الجبر والاختيار في عهد الدولة الأموية التي كانت تروج بين المسلمين أن حكمها هو قضاء وقدر من الله وأن المسلمين مجبرون على تقبل ذلك القدر " ذلك لأن الحكم الأموي استغل الروح الجبرية الظاهرة في بعض نصوص القرآن استغلالاً واضحاً، ودعم بها قوته وسلطانه على الفئات الاجتماعية المستضعفة. فقامت القدرية للدفاع عن قدرة الإنسان على اختيار ما يناسبه في الحياة، داعمة آرائها بنصوص القرآن " (15).

مشكلة القدر :

كانت اولى المشكلات الفكرية التي واجهت المسلمين في مرحلة تأسيس الفكر الإسلامي هي مشكلة القضاء والقدر وهل الإنسان مسير في حياته أم مخير ؟ وقد تكونت في مرحلة التأسيس اتجاهات الفكر الإسلامي الأساسية، ومدارسه المختلفة وشهدت هذه المرحلة ظهور المذاهب الفقهية المعروفة وبدايات ظهور بعض الفرق الكلامية المشهورة ، إذ تنبثق تلك المدارس في معظمها من إعمال الرأي والاجتهاد في العديد من الجوانب .

وتكوّن في هذه المرحلة ما يعرف بالفكر العربي الإسلامي - أو ما يُعرف بالفلسفة العربية الإسلامية - التي تأسست من علم الكلام والفلسفة والتصوف

2 - مرحلة النضج والازدهار:

من خلال تطوّر علم الكلام وظهور أهم فرقتين هما المعتزلة والأشاعرة ، فقد كان للمعتزلة الدور البارز في نشأة الفكر الإسلامي من خلال انتصارهم للعقل ودمجهم للمنطق والفلسفة في مناقشة القضايا الكلامية و يرى بعض المفكرين أن : نشأة الفلسفة في الاسلام - بما هي نشاط عقلي وفكري - تمت بفعل الدور النشط للاعتزال في بغداد أولا الذي ابدى ميلاً قوياً لحركة الترجمة الفلسفية منذ أن كانت لأحمد ابن ابي دواد (240هـ) ندوته العلمية الكبيرة التي كان يحضر مناقشاتها كبار مترجمي الفلسفة والعلماء ومتقدمي الاعتزال في عصرهم، لقد شكل الاعتزال حركة فكرية دلت على تطور الفكر الكلامي الاسلامي باتجاه مزيد من الوعي والعمق والتعقل واقترن الاعتزال بالعقل فلا يذكر المعتزلة الا ويذكر معهم العقل، ذلك لأنهم كانوا رواد الاتجاه العقلي في الفكر الاسلامي، حتى كأنهما وجهان لعملة واحدة راجت في أيام ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وكان انتصارهم للعقل نابعاً من اعتقادهم أنه مناط التكليف ، فمعظم آيات القرآن تحث الإنسان إلى إعمال عقله في جميع شؤون الحياة، لأنه ضروري لمعرفة الخالق، فالعلاقة بين العقل والنقل - كما فهمها المعتزلة - هي علاقة الأصل بالفرع ، فالعقل أصل والنقل فرع ولولا

الأصل لما وجد الفرع ،فالعقل عندهم مقدم على النقل إذ أنهم " اتفقوا على أن أصول المعرفة، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل " (15)

وإذا كان أهل السنة يعتبرون أن مصادر التشريع التي يجب الأخذ بها هي : القرآن والسنة والاجماع، فإن المعتزلة يقدمون العقل على تلك المصادر معتبرين أنه قبل الاعتماد على الكتاب والسنة يجب أن نعلم بان ثمة إلهاً أنزل الكتاب وبعث الرسول والعلم بذلك لا يأتي الا من طريق العقل. وكما قال القاضي عبد الجبار : " الدلالة أربعة حُجّة العقل والكتاب والسنة والاجماع ومعرفة الله لا تُنال الا بحجة العقل " (16)

والسبب الآخر الذي جعلهم يقدمون العقل على النص أنه كان الميزان الراجح والحكم العدل الذي يتفق على دقة وصحة أحكامه كل من المسلم واليهودي والنصراني والصابئ في ايامهم، فالمعتزلة عندما أرادوا الدفاع عن العقائد الاسلامية ضد من كانوا يحاولون إثارة الشبهات حولها - من أصحاب الملل والنحل المختلفة الذين لا يعترفون بالقرآن ولا بالسنة - أدركوا أنه لا بد أن يكون هناك مرجع يتفق حوله الجميع ، فالعقل كان محل اتفاق من جميع أصحاب الملل والنحل المختلفة وكان الحكم العدل لديهم - بحكم معرفتهم بالتراث اليوناني واستخدامهم للمنطق - فأراد المعتزلة أن يتسلحوا بنفس سلاح الخصوم وقد تسلح كل من اليهود والنصارى من قبل بالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية واستخدموهما في الجدل، فأحس المسلمون أنه لا بد من محاربتهم بنفس سلاحهم، فعكفوا على دراسة المنطق والفلسفة لاستخدامهما في الدفاع عن العقائد الاسلامية ، وفيما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة، فبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية تطلب لذاتها (17).

المدرسة الأشعرية :

وظهرت المدرسة الأشعرية كنوع من الرد على مغالاة المعتزلة في تقديس العقل وتقديمه على النص من خلال أحد المنتمين للاعتزال وهو الإمام الأشعري الذي اعتمد النقل والعقل مع تحكيم النقل محالفاً المعتزلة الذين اعتمدوا العقل والنقل مع تحكيم العقل اذا خالفت براهينه ظواهر النقل النصوي من القرآن والسنة واشتهرت الأشعرية بالوسيطه بين من اصحاب الأثر واصحاب الرأي ، بين من يقدمون النصوص ومن يقدمون العقل وجاءت بمذهب وسط بينهما فلم تقدم النص وتستغني عن العقل ولم تقدم العقل وتستغني عن النص .

وقد انطلقت الوسيطة الاشعرية من :

- فقه الإمام الشافعي (150-204هـ) وخاصة قواعده في اصول الفقه .
- الفكر الكلامي لأبن كلاب (ت 240هـ) صاحب التصانيف المشهورة في الرد على المعتزلة واثبات الصفات للذات الإلهية .
- تراث السلفية كما تمثل في فكر احمد بن حنبل (164-241هـ) .
فبقدر من العقلانية التي لم يتخل عنها الأشعري عندما ثار على الاعتزال وبمنهج الفقهاء في اصول الفقه كما صاغة الشافعي وبمنهج المتكلمين من اهل السنة - وبخاصة ابن كلاب - وبسلفية ابن حنبل ، بكل تلك الصفات ومنها انطلق الاشعري صائغاً تحوله الفكري التاريخي ومبلوراً منهجاً الوسطي الجديد (18) .

لكن الذين رفعوا قواعد المذهب الاشعري وفصلوا مجمله وشرحوا اشاراته وافاضوا في الحديث عن المشكلات الفكرية التي اثارها خصوم الاشعري وبلوروا وكوروا الاشعرية هم : ابو بكر الباقلاني (ت 453هـ) وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني (419 - 478هـ) وحجة الإسلام ابو حامد الغزالي (450 - 505هـ) فقد اعطى الباقلاني والغزالي جرعة من العقلانية أكبر مما اعطاها الاشعري (19) .

ومن اعلام الاشعرية : ابو اسحق الاسفرايني الملقب بالأستاذ وعبد القاهر البغدادي (ت 429هـ) (مؤلف كتاب الفرق بين الفرق) ومحمد بن عبدالكريم الشهرستاني (479 - 548هـ) (مؤلف كتاب الملل والنحل) وفخر الدين الرازي المفسر المشهور .

وهناك حادثة مشهورة شكّلت منعطفاً خطيراً في مسار حركة الفكر الإسلامي المزدهرة وهي إعلان الوثيقة القادرية في 17 محرّم 409هـ وفيها أعلن الخليفة العباسي الملقب بالقادر بالله منشورة الشهير الذي منع به التفكير والاجتهاد وكفر فيه المعتزلة واستباح دماءهم وقد سارع ذلك القرار في تدهور الاوضاع الثقافية والفكرية للإمة الإسلامية ، فشاعت من بعده الخرافة والاسطورة والدروشة والمهدوية والانتظار والخمول وتعزز كل ذلك من خلال كتابات متعددة ظهرت عبر القرون (20) .

لقد بدأ العقل الإسلامي في هذه المرحلة انتكاسته الاولى من خلال اتساع ذاكرة العقل الفقهي مع ضيق مخيلته ، بمعنى اتساع النصوص وكثرتها مع بداية جمع أحاديث النبي - صلى الله عليه وعلى آله - وتوسعها لدرجة كبيرة ، فكلما بُعد العهد عن زمن النبي زادت الأحاديث وترهلت الذاكرة الحديثية وقلة المخيلة الفقهية وتحول عمل الفقيه بعد هذه المرحلة من الاجتهاد في ضوء النصوص القليلة المحصورة إلى حفظ كم هائل من النصوص وتحول

عمل المسلمين من إعمال العقل في فهم النص والاستنباط منه ، إلى جامعي نصوص أخبار الأحاد ولم نعد نسمع إسم الفقيه المجتهد بل المحدث الحافظ وخصوصاً بعد ظهور الإمام الشافعي، فجل الفقهاء ظهوروا قبل الشافعي وكل المحدثين ظهوروا من بعده وهكذا انتهت هذه المرحلة بانتكاس العقل الفقهي وبداية عصر التقليد للمذاهب المشهورة التي وجدت لها تلاميذ نشروا فكر أئمتها جيلاً بعد جيل (21).

وكان ذلك تمهيداً لدخول الفكر الإسلامي مرحلة الشيخوخة وعصر الذبول والخمول والانحطاط .

3 - مرحلة الذبول والشيخوخة والانحطاط: في بداية هذه المرحلة كان العقل المسلم قد بدأ في الانحدار والتراجع خصوصاً بعد أن دونت كتب الحديث وانتشرت بين الفقهاء والمحدثين " وبدأت سلطتها تقوى يوماً بعد يوم فصارت كتب الحديث لها قداسة توازي قداسة القرآن وربما قد تفوق القرآن أحياناً حين يقدمونها في نسخ القرآن وتخصيصه وتقييده " (22) . وهذا جعل العقل الإسلامي يدخل مرحلة التعصب المذهبي الشديد وساد في هذه المرحلة التقليد وخصوصاً بعد انحسار المد العقلي المعتزلي واتساع ظهور الآثار السلبية التي تركتها غزوات و اعتداءات التتار والصليبيين على بلاد المسلمين ، فقد دخلت جحافل القوات الصليبية الغازية بلاد الشام عام (491هـ / 1097م) واقتحمت أسوار بيت المقدس وارتكبت أبشع الجرائم وأنشأت بعد ذلك أربع إمارات صليبية في الشام وشمال غرب العراق ، وكان الغرض من تلك الغزوات استرداد بيت المقدس من يد المسلمين البرابرة - على حد وصفهم البغيض والمريض - وكانت غزوات قوات التتار والمغول البلاد الإسلامية - هي قاصمة الظهر بالنسبة للعقل الإسلامي كما يقال - بقيادة هولاءكو ودخولهم بغداد عام (656هـ / 1258م) وتدميرها وأحراق مكتبتها ورمت بنفائس الكتب في نهر دجلة لقد سقط العقل الإسلامي بسقوط بغداد واحراق مكتبة بيت الحكمة التي شكلت كنزاً للتراكم المعرفي الإسلامي . وتمكن المسلمون من إيقافه على يد سيف الدين قطز في معركة عين جالوت في فلسطين عام (658هـ / 1260م) ، بعد ذلك دخلت قوات تيمورلنك العراق واحتلت بغداد عام (795هـ / 1393م) وليس صدفة أن يقفل باب الاجتهاد في نفس القرن السابع الهجري الذي سقطت فيه بغداد عاصمة الخلافة العباسية حينها في ايدي التتار، فقد روى ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) أن الخليفة المستعصم بالله كان يداعب جاريته والتتار يحاصرون دار الخلافة ويرمونها بالنبال وتنقل الروايات

ايضاً أن المستعصم بالله دعا علماء الفقه في المدرسة المستنصرية في بغداد وأمرهم أن يقتصروا في دروسهم على أقوال الأئمة من قبلهم ولا يدرسوا كتاباً من كتبهم وقد كان ذلك بالفعل بداية لظهور مرحلة الجمود والانحطاط في الفكر الإسلامي أفرزت رجلاً مثل أبي الحسن عبدالله الكرخي شيخ الحنفية في بغداد والذي اشتهر بقوله : " كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ " (23) .
لقد توقف الفكر الإسلامي في مجمله في هذه المرحلة توقفاً تاماً ، نظراً لتوقف حركة التغيير وسقوط المراكز الحضارية في العالم الإسلامي برمته بيد الغزاة الأجانب " لقد اتصفت حركة الفكر الفقهي في هذا العصر بالجمود والانغلاق والتصريح بسد باب الاجتهاد وترك النظر في أمهات الكتب في الفقه الإسلامي والانكباب على اختصارها بأساليب ركيكة مخلة بالمعنى والمبنى " (24) .

وتتابعت الضربات في جسد العالم الإسلامي المثخن بجراح طعنات الغزاة وتم اخراج المسلمين من الاندلس بشكل كامل عام 1492م .
ودارت الدوائر وتغيرت الادوار بين الحضارة الإسلامية التي غربت شمسها لتشرق على أوربا من خلال النهضة الأوروبية التي نقلت أوربا من العصور الوسطى المظلمة إلى عصر الأنوار في القرن السابع عشر .
الاستعمار الغربي للدول الإسلامية :

فشل مسيحيو أوروبا في حروبهم الصليبية ضد المسلمين، وباءت حملاتهم بالفشل الذريع، إلا أن اتصالهم بالمسلمين طول قرنين من الزمان - من نهاية القرن الحادي عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلاد - قد أتاح لهم أن يتعرفوا على حضارة المسلمين وثقافتهم التي أسهمت في نهضتهم الحديثة، وادركوا أثر الإسلام في وحدة المسلمين وفي قوتهم الذاتية، وقد رجعوا إلى بلادهم - كما يقول المثل بخفي حنين - لكنهم ظلوا يفكرون في العودة للنار والانتقام من المسلمين والقضاء على الإسلام، وقد تفرغ الأوربيون لبناء النهضة الحديثة في أوروبا وحققوا تقدماً علمياً أتاح لهم بناء قوة عسكرية، مجهزة بأحدث الأسلحة حتى إذا ما أحس بتقدمه وتفوقه في مجال القوة العسكرية عاد إلى الشرق غازياً لتحقيق أطماعه، والثأر من الإسلام والمسلمين وبدأت مرحلة الغزوات الصليبية الجديدة للعالم الإسلامي مع الموجة الاستعمارية الجديدة في أوائل القرن السادس عشر، وبالتحديد عندما وصلت السفن البرتغالية وسيطرت على الشواطئ الغربية للهند - أو جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) - بقيادة فاسكو دي جاما الذي قال كلمته المشهورة " الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل ليختنق

فيموت " ومما يُثير الأسى قبل العجب أن الربان الذي وجهه تلك السفن هو البحار العماني أحمد بن ماجد واستطاعت البرتغال الانفراد بخطوط الملاحة العالمية المؤدية إلى الهند طوال هذا القرن ولكن السيطرة البرتغالية بدأت تنهار وفي بداية القرن السابع عشر احتلت هولندا إندونيسيا عن طريق شركة الهند الهولندية - التي تأسست عام 1602م - وتوالت ضربات بريطانيا وفرنسا الهادفة لكسر هذا الاحتكار البرتغالي لخطوط الملاحة البحرية إلى الهند ، وقد نجحت الشركات التجارية في كسر هذا الاحتكار، ومن أشهرها شركة الهند الشرقية البريطانية التي ظهرت في مطلع القرن السابع عشر، ولم يأبه حكام الإمبراطورية الإسلامية المغولية في الهند في البداية للخطر الذي تمثله تلك الشركة واستغلت بريطانيا العداء بين الهندوس والمسلمين في الهند والمشاحنات بين الإمارات الإسلامية لكي توجه ضربة قاصمة إلى سراج الدولة (نائب الإمبراطور في إقليم البنغال) عام 1757م، ثم تلتها بضربة ثانية إلى الإمبراطور المغولي نفسه عام 1764م استولت بريطانيا بعدها على البنغال، ثم قامت بتوجيه ضربة ثالثة قاضية إلى ملك ميسور المسلم عام 1798م . و استطاعت بريطانيا عام 1820م - وبعد ممارسة ضغوط عديدة- أن تعقد اتفاقيات مع رؤساء القبائل الساحلية في منطقة الخليج العربي وبالتحديد في المناطق الواقعة بين قطر وحدود سلطنة عمان وقد أصبحت تلك الاتفاقيات دعامة للنفوذ البريطاني في هذه المنطقة التي أصبحت تُعرف منذ ذلك الحين باسم الساحل المهادن.

واحتلت القوات البريطانية عدن عام 1839م من أجل تأمين خطوط الملاحة البحرية لها إلى الهند وقد عمل الاستعمار البريطاني على التوسع السريع في الهند مستغلاً قوته العسكرية في القضاء على أي مقاومة وقد استطاع أن يخمد ثورة شعبية كانت تطالب بعودة الإمبراطورية المغولية الإسلامية التي كانت رمز التسامح بين المسلمين والهندوس، واستطاعت بريطانيا في النهاية أن تفرض رسمياً الحكم البريطاني على الهند في عام 1857م .

وفي نفس العام استولى الاستعمار الفرنسي على الجزائر بشكل كامل بعد أن بدأ بغزوها منذ عام 1830 .. وتقاسمت الدول الاستعمارية العظمى الأدوار، حيث كانت فرنسا تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وروسيا القيصرية تسيطر على البحر الأسود وبريطانيا على البحر الأحمر وبعد قرنين ونصف - من بداية القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - تمكن الاستعمار المسيحي الغربي من السيطرة التامة على العالم الإسلامي من شرق آسيا ووسطها إلى غرب القارة الأفريقية .

واتضحت سياسة الاستعمار المسيحي الغربي للعالم الإسلامي باعتبارها سياسة تقوم على إضعاف إسلام المسلمين وطمس هويتهم الإسلامية - التي كانت سبباً في قوتهم ومنعتهم وازدهارهم - أولاً وبالذات وقد برز ذلك التوجه في صورتين تتم كل منهما تلك الغاية : الصورة الأولى من خلال قيام بعض مفكري المسلمين بحركة - أسموها بالتقدمية في الإسلام - هدفها تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية . أما الصورة الأخرى : فكانت من خلال قيام بعض المستشرقين المسيحيين بالبحث في التراث الإسلامي لإبراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات وتوسيع الثغرات بين طوائف المسلمين وشعوبهم من الوجهة الشعبوية أو الجغرافية أو نظام الحكم ، مع تعمد شرح الكثير من مبادئ الإسلام شرحاً مشوهاً ينحرف بها عن مبادئها الأصلية ، بالإضافة إلى تمجيد قيم المسيحية وقيم الحضارة الغربية المادية والنظام السياسي والسلوك الفردي للشعوب المسيحية الغربية (25) .

وكان لا بد من البدء بمرحلة إعادة بناء المجتمع الإسلامي - من خلال الفكر الإسلامي - خصوصاً بعد اغلاق باب الاجتهاد وتغلل الاستعمار الغربي داخل الدول الإسلامية ووصوله إلى عقول بعض ابنائها .

4 - مرحلة الاحياء والتجديد والإصلاح الديني: ظهرت تلك المرحلة في نهايات القرن التاسع عشر وقد تزعمها بالفعل جمال الدين الحسيني الافغاني (1838م - 1897م) الذي طغى على شخصيته ظهور مشروعه الإصلاحية وحياته المليئة بالحركة والانتقال بين مراكز العالم الإسلامي في عصره. ويمكن رسم ملامح المشروع الاحيائي الاصلاحية من خلال ما كتبه أولئك الرواد ، فقد كان مشروعهم الاحيائي مشروعاً تجديدياً لا يُقيم قطيعة مع التراث وإنما يتجاوز المتخلف منه - ويعنون به ذلك الجزء الذي تجاوزه التطور - ولا يُقيم قطيعة مع الحضارات الأخرى وإنما يُميز في عطائها بين المشترك الإنساني العام وبين الخصوصيات التي تتميز بها تلك الحضارات ولا يدير المشروع ظهره للواقع في الحاضر أو المستقبل فيهجره إلى الماضي - كما فعل تيار التقليد للموروث - أو إلى الغرب الحضاري - كما فعل تيار التغريب - وإنما أراد هذا التيار استلهام الموروث والاستعانة بالوافد الملائم كمنطلقات لإبداع جديد في الواقع الإسلامي الجديد ، فالإبداع هو الهدف والأساس والسبيل إلى الاحياء والتجديد في مذاهب أعلام هذا التيار (26) .

وقد تركز مشروع الأفغاني في مواجهة الاستلاب الحضاري والتغريب ودعا إلى إسلامية المشروع النهضوي والإصلاح بإسم الإسلام والتركيز

على الهوية الإسلامية الجامعة وقد كتب عن مشروعه قائلاً : أن الدين هو قوام الأمم وبه فلاحها وفيه سر سعادتها وعليه مدارها وإننا معشر المسلمين إذا لم نؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآنا فلا خير لنا فيه ... ومن طلب إصلاح أمة بوسيلة أخرى غير الدين القويم فقد ركب بها شططاً ولن يزيدها إلا نحساً ولن يكسبها إلا تعساً⁽²⁷⁾ .

وقد دعا الأفغاني الشعوب الإسلامية إلى مشروع تجديدي إصلاحي يضم الشرق الإسلامي لمواجهة تحديات الحضارة الغربية التي تهدد كيان الأمة وهويتها من خلال الاستعمار العسكري والغزو الثقافي والتغريب الفكري والاستشراق ودعاها كذلك لإحياء العقلانية الإسلامية المؤمنة التي ترفض الجمود على ظواهر النصوص وترفض كذلك الغلو في العقل وتقديمه على النص وقد نادى بوضع العقل في مكانه الطبيعي .

ويمكن تلخيص عناصر المشروع التجديدي النهضوي للأفغاني من خلال التالي : 1 - الاهتمام بالفرد داخل الأسرة من خلال مراعاة الاستعدادات الخلقية بين الرجل والمرأة ، فالرجل يسعى خارج المنزل والمرأة تربي الأجيال داخله .

2 - تربية النشأ على المواطنة الصالحة عن طريق مؤسستين : مؤسسة الأسرة من خلال إعداد المرأة الصالحة كي تكون اماً تتعهد بتربية الأجيال في مراحلهم العمرية المختلفة والمؤسسة الثانية هي المدرسة التي تكمل دور الأسرة في تربية الأجيال وركز خصوصاً على المدارس الأهلية .

3 - إصلاح المجتمع من خلال تفعيل مبدأ الشورى في اختيار الحاكم بما يحقق مصالح عامة الناس ويمنع استبداد الحاكم⁽²⁸⁾ .

وقد أكمل مشروع الأفغاني الإصلاحي من بعده الأمام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، فالإمام محمد عبده(1849م - 1905م) تأثر بالأفغاني وسار في طريق التجديد المنتور الذي ينأى عن التقليد أياً كان مصدره - من التراث أم من الحضارة الغربية - وكانت حركته الإصلاحية بمثابة تنوير ديني من خلال دعوته لإعمال العقل في كتب التراث وكذلك في الحياة المعاصرة في أيامه ، نظراً لإيمانه بان العقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر . لقد كان الواقع المتخلف بكل سيئاته أرضاً وقف عليها تفكير محمد عبده وصورة خلفية ارتكزت عليها نظرتة الإصلاحية وقد تشعبت تلك النظرة بتشعب طرق الحياة ومسالكها ، فشملت مختلف الشؤون .. فأمن ان إصلاح الأزهر يُعد سبيلاً لإصلاح حال المسلمين وإصلاح مناهج التعليم يُعد طريقاً لإيجاد المتعلم القادر على التغيير وأمن ان التقريب بين الأديان والمذاهب يُعد سبباً لنشر الوئام والمحبة في المجتمع الإسلامي⁽²⁹⁾ .

وقد برزت ثلاث قضايا ألحت على الفكر الإسلامي حينها وهي : قضية النهضة وقضية التجديد والاجتهاد وقضية العمل الإسلامي الشعبي لإحياء الإسلام كأمة ودولة .

ومن رواد تلك المرحلة كذلك المفكر الباكستاني محمد أقبال (1877 - 1938م) الذي دعا المسلمين إلى فلسفة الذات وهي تعني عنده الشعور بال شخصية المستقلة وعدم استلاب الطاقات التي زوّد بها الإنسان وبوسع كل فردٍ من خلالها أن يتحرّك بأقصى ما يستطيع وعلى ذلك تغدو الذاتية لديه قرينة الحرية المنضبطة وكان يعني بقوله الأمة الإسلامية مجتمعة ولا يعني كلّ فردٍ فيها على حده (30).

لقد دوّن إقبال خلاصة أفكاره وثقافته في كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام) ولو كنا ندرك أهمية وقيمة هذا الكتاب لقلنا " إن الفلسفة الإسلامية تنبعث من جديد مع هذا الكتاب وإنما مع فيلسوف إسلامي لا يقل عن أهمية ومنزلة فلاسفة ألمانيا وانجلترا وفرنسا وفلاسفة أوروبا عموماً منذ ديكارت" (31) .

وقد تساءل في كتابه عن سر الجمود الذي لحق بالمسلمين - وليس بالإسلام - ويرجع ذلك في نظره إلى عاملين أساسيين هما :

- إغلاق باب الاجتهاد من قبل أهل السنة - بعد دخول التتار إلى بغداد - فركّز بعض رجال الفقه جهودهم في الحفاظ على ما هو قائم وأنكروا كلّ تجديدٍ في أحكام الفقه ، ولكن فاتهم أن تبجيل الماضي تبجيلاً زائفاً ليس علاجاً لانحلال شعبٍ من الشعوب .

- التصوف في مرحلته الأخيرة : وقد أضّر بالمسلمين أكثر مما أضّر بغيرهم من شعوب الأرض وقد أنكر إقبال على التصوف في مرحلته الأخيرة ثلاثة أمور هي :

1 - الرهبانية وهي فكرة مسيحية ، بينما حياة المسلم هي حياة كفاح (ولا رهبانية في الإسلام) .

2 - فكرة الفناء في الله بما يصاحبها من شطح وهي ترجع إلى أفكارٍ من الديانة الهندية .

3 - مذهب وحدة الوجود : وقد عارض إقبال هذه الفلسفة لأنها - بحسب قوله - تستبدل بقول : لا إله إلا الله عبارة : لا موجود إلا الله ، فالإسلام كما يرى لم ينفِ تعدد الموجودين وإنما نفى تعدد الآلهة ويذكر أيضاً أن عقيدة الجبر والتواكل التي أرساها التصوف هي المسؤولة عن هذا الضعف والهوان والتخلف الذي حلّ بالأمة الإسلامية بحسب وصفه (32) .

لقد احدث محمد إقبال تجديداً لافتاً في حياة المسلمين في الهند وتحولت تعاليمه إلى مدرسة ثقافية روحية تجديدية ، سار على نهجها كل من جاء بعده من المفكرين المسلمين منهم : أبو الاعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ووحيد الدين خان الذي قاد معركة تجديد الحياة الإسلامية بكتاباته الغزيرة وأفكاره المستنيرة في الحياة العلمية والثقافية والروحية (33) . وتواصلت مسيرة الفكر الإسلامي في هذه المرحلة من خلال كتابات أبو الاعلى المودودي (1903 - 1979م) في كتبه عن (النظرية السياسية في الإسلام) و (الإسلام والجاهلية) و (المصطلحات الأربعة) .

وأبو الحسن الندوي (1913 - 1999م) من خلال كتابيه : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين وصراع الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية - عاشا في الهند سابقاً وما يعرف بباكستان حالياً - وكذلك المفكر الفلسطيني تقي الدين النبهاني (1914م - 1977م) والكاتب والمفكر الباكستاني فضل الرحمن (1919م - 1988م) الذي دعا إلى إعادة قراءة النص القرآني وفقاً لثلاث قواعد وهي المعرفة الدقيقة للظروف الموضوعية التي أحاطت بالنص عند نزوله ، أي معرفة التاريخ والجغرافيا والمجتمع والثقافة السائدة وكذلك معرفة المبدأ الاخلاقي الذي يدعو اليه النص وثالثا العودة إلى الواقع الحالي لمعرفة كيف يمكن

تطبيق ذلك المبدأ بمعنى التركيز على البعد الاخلاقي الزمني لنزول الآيات

5 - مرحلة الاستقلال عن الاستعمار الغربي وقد مهد لتلك المرحلة كتابات الرواد في مرحلة التجديد والإصلاح وظهرت حركات إسلامية مؤدجلة أهمها واعظمها أثراً في الفكر الإسلامي المعاصر حركة الإخوان المسلمين في مصر - بقيادة حسن البنا عام 1928م في تلك المرحلة كلف حسن البنا بعض المنتمين للحركة بكتابة بعض الكتب التي تهم المسلم المعاصر منها : فقه السنة : سيد سابق وكتاب خطوط في الاقتصاد الإسلامي : محمود أبو السعود وكتاب عن المرأة : محمد البهي ، وقد أصدر الإخوان المسلمون بعد ذلك مجلة المسلم المعاصر عام 1974م.

ومن رواد هذه المرحلة المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905م - 1973م) ويمكن اعتباره امتداداً لأبن خلدون ويعد من أكثر المفكرين الذين نبهوا على ضرورة العناية بالمشكلات الحضارية وقد سلسل مشروعه الفكري تحت عنوان (مشكلات الحضارة) درس فيها مشاكل العالم الإسلامي (في كتابه وجهة العالم الإسلامي) ومنها مشكلة الاستعمار بشكل خاص فوصل إلى نتيجة مهمة فحواها : إن محصلة عوامل التخلف من جهل وفقر ومرض وأوثان وانحطاط في المجتمع الإسلامي - بعد القرن الثالث عشر

الهجري - أدت إلى الاستعمار وقد بين أن الاستعمار ليس ظاهرة خارجية بقدر ما هو ظاهرة داخلية تدعمها أسباب اجتماعية أطلق على مجموع تلك العوامل - التي تنخر المجتمع من الداخل - اسم القابلية للاستعمار التي صارت جزءاً من عالم المسلم ينبغي الخروج منه بالتححرر القيمي والخلقي . وفي كتابه (شروط النهضة) بيّن أنه كي تقوم حضارة - في أي زمان ومكان - لا بد من توافر ثلاث عناصر : الإنسان الأرض (التراب) الزمن (الوقت)⁽³⁴⁾ .

ومن أهم كتبه أيضاً : الظاهرة القرآنية ومشكلة الثقافة ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي . ولا يمكن أن ننسى اسهامات محمد الغزالي(1917-1996م) في كتبه الفكرية المتنوعة والهامة التي ناهض فيها الغلو والتشدد وكان من دعاة التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر وقد اشتهر بلقب أديب الدعاة . وايضاً الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي شهيد المحراب (1929 - 2013م) رئيس اتحاد علماء بلاد الشام - الذي اغتالته الجماعات الإرهابية في سوريا وهو يلقي دروسه الدينية المعتادة في أحد مساجد دمشق - وقد اختارته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في دورتها الثامنة عام 2004م ليكون شخصية العالم الإسلامي . وكذلك بعض مؤلفات يوسف القرضاوي ومنها كتابيه : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المحمود والتفرق المذموم وغيرهم الكثير في ارجاء العالم العربي والإسلامي .

6- مرحلة الصحوة الإسلامية الشاملة وقيام الثورة الإيرانية -

في 10 فبراير 1979م - وزادت عقبها ولا تزال هذه المرحلة تتفاعل حتى الآن، ولكن يُعاب عليها الاختلاف الواسع في تصور سبل التغيير بين الحركات الإسلامية، فكل حركة لها تصوراتها الخاصة في ذلك، ووصل بهم هذا الحال إلى حد الاختلاف والصراع أحياناً، ويسجل لها جميعاً تقريباً وقوفها في وجه حملات الغزو الثقافي والتغريب الفكري خصوصاً مؤلفات السيد محمد حسين الطباطبائي - بتعليق تلميذه مرتضى المطهري - وبالذات كتابه (أصول الفلسفة والمذهب الواقعي) والذي يعتبر انجازاً فكرياً إسلامياً غير مسبوق والسبب في ذلك هو محاكمته للفلسفة المادية الغربية واختراق هيكلها ونقض مرتكزاتها وقد صار فيما بعد مرجعاً استفاد منه المفكرين المسلمين في اعمالهم وتلك هي المرة الاولى الذي صاغ فيها مفكر مسلم - بعد صدر الدين الشيرازي - نظاماً فلسفياً متيناً يستوعب أمهات المسائل الفلسفية في إطار حديث ، بالاعتماد على المقولات والمفاهيم الحية

التي ابدعتها الفلسفة الإسلامية مع توظيف معطيات الفلسفة الغربية ،وقدم الطباطبائي كتاباً مميزاً بعنوان (الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي) .
وصاغ الشيخ مرتضى المطهري (1918 - 1979م) اسهاماً لافتاً ومتميزاً في صياغته لأسس (الرؤية التوحيدية) في سلسلة دراسات تناولت قضايا تتصل بنظرية المعرفة وموقع الإنسان في الوجود والمجتمع والتاريخ وما يرتبط بالرؤية التوحيدية للعالم من مسائل ، وقدّم أيضاً عملاً مفيداً في كتابه (الإسلام ومتطلبات العصر) .

وظهر مفكرون مسلمون مميزون من ابرزهم المفكر والفيلسوف العراقي محمد باقر الصدر(1935 - 1980) الذي أعدمه صدام حسين وقد برز تميزه في كتابيه : اقتصادنا وفلسفتنا وكتاب البنوك غير الربوية في الإسلام وكذلك كتاب الإسلام يقود الحياة . والمفكر والفيلسوف اللبناني حسين مروة (1910-1987م) الذي تميّز بكتابه الضخم النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية الذي صدر عام 1978م وأثار حينها جدلاً واسعاً في الاوساط الفكرية العربية والإسلامية .

و في الاخير يجب أن لا ننسى إسهامات المفكرين المسلمين في اوروبا ومن أشهرهم: الرئيس البوسني على عزت بيجوفتش(1925-2003م) في كتابه الذائع الصيت (الإسلام بين الشرق والغرب) وكتابه الآخر عوائق النهضة الإسلامية وقد تساءل في كتابه عن سر تأخر المسلمين وأجاب بأن هناك سببين لذلك ، الاول خارجي وهو هجوم التتار على عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد عام 656هـ والسبب الثاني داخلي وهو التفسير الديني المحض للإسلام الذي يحصره في دائرة الرسالة الدينية مهملأً ومنكرأً دور الإسلام في تنظيم وتغيير العالم الخارجي .

وكذلك المفكر الفرنسي روجيه جارودي(1913 - 2012م) الذي اعتنق الإسلام عام 1982م - بعد زواجه من امرأة فلسطينية - وحكم عليه بالسجن عام 1998م بعد صدور كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسية الصهيونية) الذي أنكر فيه المحرقة اليهودية المزعومة وله أكثر من 70 كتاباً فكرياً وسياسياً واهمها (أمريكا طليعة الانحطاط) وقد كتب عن الإسلام ومن أهم كتبه ايضاً (الأصوليات المعاصرة) .

وكذلك كتابات المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان (1931-2020م) الذي تعرّف على الإسلام عندما كان سفيراً لبلاده في المغرب وقد اسلم عام 1980م ومن كتبه : (الإسلام كبديل) - وهو الكتاب الذي أحدث ضجة في الغرب حال صدوره وترجم إلى العديد من لغات العالم - وكتاب (يوميات مسلم الماني) و(الطريق إلى مكة) .

وكذلك المفكر - النمساوي الأصل والباكستاني الجنسية - محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً) (1900 - 1992م) كان كاتباً ومفكراً ولغويًا وناقداً ومصلاً اجتماعياً، زار القاهرة وتعرّف على الإمام مصطفى المراغي وحاوَره حول الأديان وبدأ بتعلم اللغة العربية في الأزهر - وكان لا يزال يهودياً - وقد أسلم وقاتل مع عمر المختار ضد الإيطاليين في ليبيا والتقى مع المفكر محمد اقبال ودعا معه لتأسيس دولة باكستان التي استقلت عن الهند عام 1948م وقد مُنح الجنسية الباكستانية وأصبح فيما بعد مبعوثاً لباكستان لدى الامم المتحدة وقد عمل رئيساً لمعهد الدراسات الإسلامية في لاهور حيث قام بتأليف كتبه التي دفعته إلى مصاف المفكرين الإسلاميين المشهورين ومن أشهر كتبه : (الإسلام على مفترق الطرق) وكتاب (الطريق إلى مكة) وقد قام بترجمة معاني القرآن وصحيح البخاري إلى اللغة الانجليزية وقد اوصى المسلمين في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) قائلاً : " يجب على المسلم أن يعيش عالي الرأس ويجب عليه أن يتحقق أنه متميز وأن يكون عظيم الفخر لأنه كذلك وأن يُعلن هذا التميّز بشجاعة بدلاً من ان يعتذر منه " .

كانت تلك هي أهم مراحل الفكر الإسلامي - من وجهة نظر الكاتب - وأولئك المفكرين المذكورين سابقاً يشكلون عماد ذلك الفكر ، ربما نكون قد نسينا بعض الأسماء وعذرنا أن ما كتبناه يندرج في إطار الفكر البشري الذي يعتريه النقص دائماً .

مراجع الفصل الأول :

- (1) ينظر: صالح بن سليمان البقعاوي : التفكير العلمي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط1/ 2007م . ص33 .
- (2) ينظر : محسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ولاية فرجينيا ، أمريكا . ط1/ 1995م ، ص41 .
- (3) بسام جرار : دراسات في الفكر الإسلامي . مركز نون للدراسات ، البيرة /فلسطين . ط2/ 2006م . ص15 .
- (4) ينظر : محمد البهي : الفكر الإسلامي في تطوره ، دار الفكر ، مصر ط/1971م . ص7 .
- (5) أحمد الرسيوني : الفكر الإسلامي وقضايا السياسة . دار الكلمة للنشر ، القاهرة . ط1/ 2013م . ص9 .
- (6) بسام جرار : دراسات في الفكر الإسلامي . ص16 . سابق .
- (7) نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص . المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب . ط6/2005م . ص9 .

- (8) فؤاد محسن الراوي: الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي . دار المأمون ، عمان ، الأردن . ط1/ 2009م . ص102.
- (9) المرجع السابق : ص97.
- (10) ينظر : الفكر الإسلامي : النشأة والتطور والتحديات المعاصرة . رعد شمس الدين الكيلاني . مكتب شمس الأندلس للطباعة ، بغداد . ط1/ 2017م . ص11-12 .
- (11) ينظر : محسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي . ص42 . سابق .
- (12) ينظر : أحمد الرسيوني : الفكر الإسلامي وقضايا السياسة . ص8 - 9 . سابق .
- (13) نصر حامد ابو زيد : الاتجاه العقلي في التفسير . دار التنوير بيروت . ط1 . ص12.
- (14) ينظر : حسين مروه : النزعات المادية ج1 . دار الفارابي - بيروت . ط/1981م . ص634.
- (15) الشهرستاني . الملل والنحل ج1 / ص45 . سابق.
- (16) نقلاً عن : ارثور سعديف . و توفيق سلوم . الفلسفة العربية الاسلامية . ص50 . سابق.
- (17) ينظر : أحمد أمين : ضحي الاسلام : ج1 . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ط10 . ص279.
- (18) ينظر : محمد عمارة : الفكر الإسلامي مواجهة التحديات المعاصرة . دار الشروق ، القاهرة . ط2/ 1997م . ص168 .
- (19) . ينظر : المرجع السابق . ص170 .
- (20) ينظر : عبدالله بن محمد بن اسماعيل حميد الدين : الزيدية . مركز الرائد للدراسات والبحوث ، صنعاء . ط2/ 2006م . ص29 .
- (21) ينظر : عبدالله القيسي : عودة القرآن . منظمة صحفيات بلا قيود (د - ت) ص18 ، 19 .
- (22) المرجع السابق : ص28.
- (23) ينظر: فهمي هويدي : القرآن والسلطان . دار الشروق ، القاهرة . ط4/ 1994م . ص20 - 21 .
- (24) محسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي . ص72 . سابق .
- (25) ينظر : محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . مكتبة وهبة ، القاهرة . ط4/ (د - ت) ص23-24 .
- (26) ينظر : محمد عمارة : أزمة الفكر الإسلامي المعاصر . دار الشرق الاوسط للنشر ، القاهرة (د - ت) . ص72 - 73 .
- (27) ينظر : محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة . دار نهضة مصر ، الاسكندرية . ط4/ 2004م . ص27-28 .
- (28) ينظر : رعد شمس الدين الكيلاني . الفكر الإسلامي : النشأة والتطور والتحديات المعاصرة . ص93 - 94 . سابق .
- (29) ينظر : غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم (دون ذكر دار النشر) ط4/ 1425هـ - 2004م . ص22 .
- (30) ينظر : حسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي . ص110 . سابق .
- (31) زكي الميلاد : محمد إقبال وتجديد التفكير الديني في الإسلام . مجلة الكلمة ، بيروت . عدد 49/ خريف 2005م . ص21 .
- (32) ينظر : محمد أحمد عبدالقادر : بين الأصالة والمعاصرة : قراءة في مسار الفكر الإسلامي . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية . ط/1994م . ص416-417 .
- (33) ينظر : حسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي . ص111-112 . سابق
- (34) ينظر : مالك بن نبي : شروط النهضة ، كتاب الدوحة ، قطر (د - ت) ص16-17 .

العقل والدعوة إلى التفكير في القرآن الكريم

يخبرنا القرآن عن نفسه انه كتاب هداية و يصف نفسه بأنه (هدى للمتقين) ومعظم آياته تدل على أنه أنزل بشكل عام بتلك المهمة (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) البقرة : 185. وفيه ايضاً (بَيِّنَاتٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) آل عمران : 138 .

والهدى : تأتي بمعنى البيان والتوضيح وضده الضلال وكما هو معلوم أن الهادي من أسماء الله تعالى سبحانه وهذا يعني أنه الذي بصَّرَ عِبَادَهُ وَعَرَّفَهُمْ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ حَتَّى أَقْرَبُوا رَبُّوبِيَّتَهُ وَهُدًى كُلِّ مَخْلُوقٍ إِلَىٰ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي بَقَائِهِ وَدَوَامِ وُجُودِهِ .

و الهدى ضدّ الضلال وهو الرِّشَادُ كما قال عز وجل (قل إن هدى الله هو الهدى) أي الصِّراط الذي دَعَا إِلَيْهِ وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) أي إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَىٰ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي بَيَّنَّا لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَىٰ وَطَرِيقَ الضَّلَالَةِ فَاسْتَحَبُّوا أَيِ اثْرَوَا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَىٰ ، والهدى هو البيان يقال : هَدَيْتُ لَكَ فِي مَعْنَى بَيَّنْتُ لَكَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى (أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) تعني: أَوْلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ (1) .

وبالتالي يمكن الاعتماد على القرآن في إدارة كل ما يتعلق بحياة الإنسان الفكرية والنفسية والروحية والاجتماعية ، لأن الله قد بين فيه كل شيء يتعلق بتلك النواحي التي تلامس حياة الإنسان، { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89 .

ولأنه قال فيه ايضاً : { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } . ولأنه تعالى قد تعهد بحفظه قائلاً : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر 9 .

فلا يستطيع أي كان ان يبدل او يحول فيه كما اخبر سبحانه وتعالى : { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } يونس 64 { وَآتَىٰ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ } الكهف 27 .

بالإضافة أن فيه من الامثال والعبر والايحاءات الكثير الذي ينفع الإنسان في معالجة مشاكله وهمومه .

وبناءً على ما سبق يمكن القول انه يجب ان نعتمد على القرآن في توجيه شؤون حياتنا الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسة - في كل زمان ومكان - لأن فيه الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يبتغي المصلحة ، فهو كما قال عنه تعالى : { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } فصلت 42 .

لكن الواقع المعاش يخبرنا اننا جعلنا القرآن في الدرك الاسفل من سلم اهتماماتنا واستغنيا عنه بأقوال الفقهاء والمحدثين والمشايخ والسياسيين

والمفكرين والمثقفين، وهجرناه دون تدبر ولا تطبيق، فليس مهماً أن تقرأ القرآن ولا أن تحفظه، لكن المهم والأهم في نفس الوقت أن تطبق ما قرأت فتفعل ما أمرك الله به، وتنتهي عما نهاك عنه، تُحل الحلال بعمله، وتنتهي عن الحرام باجتنابه، تعرف اعداء الله وأعداء المسلمين من خلاله وتوالي من أمرك الله بموالاته وتنتهي عن موالاته أعداء الله، ما لم نفعل ذلك فإن القرآن يعتبر مهجوراً من حياتنا الواقعية - حتى إذا كنا نتلوه ونحفظه - وذلك ما قاله القرآن على لسان رسول الإنسانية: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} الفرقان 30 .

إن القرآن الكريم يحثنا على التفكير والتدبر فيه ولم يأمر بحفظه وجعل ذلك الحفظ هي الغاية، بل هو وسيلة للتفكير والتدبر .

التدبر دون الحفظ :

كل آيات القرآن تأمر المؤمن بأن يتدبر آيات الله في الكون - وفي القرآن - ويعمل عقله للوصول بها إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه وتعالى : {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد 24 . {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} الزمر 27 . {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء 82 . {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} ص 29 .

فكل الآيات تحث المؤمن على التفكير والتدبر والتأمل ولا توجد أية تأمره بحفظ القرآن - وهو مندوب وليس واجباً مثل التدبر - لأن الله قد تعهد بذلك، لكن البعض جعل المندوب واجباً والواجب مندوباً فأستغنى عن التفكير والتدبر وأكتفى بالحفظ والترديد بدون وعي .

العقل في القرآن :

لا يوجه القرآن خطابه للأطفال والحيوانات والمجانين والحمقى، لكنه يوجهه لأصحاب الفطرة السليمة والعقول الناضجة، الذين يستخدمون عقولهم ويفكرون ويتفكرون، على اعتبار أن العقل هو مناط التكليف والعقل يُحاسب على ما اقتترف من أعمال بخلاف الحيوان والطفل والمجنون، هم لا يحاسبون لانهم لا يملكون العقل .

والقرآن الكريم دائماً ما يذكر العقل ويضعه في مكان التعظيم الذي يستحقه ويحث الناس بوجوب العمل على ضوئه وهداه والرجوع إليه، وهذه مزية تحسب للقرآن وهو بخلاف كتب الديانات الأخرى " ففي كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة او مضمونة الى العقل او الى التمييز ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ بعض الاحايين شيئاً من الزرارية بالعقل او التحذير منه، لأنه مزلة العقائد وباب من ابواب الدعوى والانكار

"(2) . والملاحظ ان القرآن يعطي العقل والتعقل أهمية كبيرة تتناسب مع أهميته ومكانته بالنسبة للإنسان، يمكن ان نلاحظ ذلك بالرجوع الى القرآن عينه ، فنجد ان مادة (عَقْل) وردت فيه خمسين مرة ، وقد وردت صيغة الخطاب (تعقلون) في 24 آية منها على سبيل المثال : آية 73 في البقرة ، وآية 61 في النور، وآية 183 في الصافات، وآية 80 في المؤمنون ، وآية 10 في الانبياء، وتأتي بعدها صيغة (يعقلون) وردت في 22 آية منه ، منها على سبيل المثال: آية 164 و171 في البقرة ، وآية 22 في الانفال ، وآية 36 في الحج ، وآية 35 في العنكبوت (3) .

والقرآن يطلب من الإنسان أن يجعل عقله هو الحكم الدائم في كل ما يعترض حياته من مشكلات مختلفة ، يقول تعالى في عدة آيات : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } البقرة 164 . {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } يونس 42 . {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } يونس 100 . {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } النحل 12 . فالإنسان الذي لا يستخدم عقله في فهم الامور والتعرف على الحقائق ، يشبهه القرآن بالشخص الاعمى والاصم والابكم الذي لا يعي ولا يعرف ما حوله ولا يستطيع ان يعبر عن نفسه ، بل هو في مرتبة ادنى من مرتبة الحيوان ، كما يقول تعالى : {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الانفال 22 . {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44 .

وقد خاطب الله تعالى الذين يفكرون ويستخدمون عقولهم في الوصول الى الحقيقة ، والعقل باختصار هو معرفة ما تؤول إليه الامور، او هو الانتقال من مقدمة الى نتيجة ، بمعنى : $1 + 1 = 2$. فمثلاً : اذا آمن الإنسان بالله قولاً وعملاً فطبق كل ما أمر به وأنتهى عن كل ما نهاه الله عنه (مقدمة) فسوف يدخل الجنة (نتيجة) ، وهكذا في كل الامور الحياتية التي تحتاج منا إلى تعقل وتفكير لنعرف عواقب الامور ونتائجها .

التفكير في القرآن :

تكرر ورود مادة (فَكَر) ماضية ومضارعه في نحو ثماني عشرة آية وقد جاءت على صيغة فَكَر مرة واحدة ، يتفكرون إحدى عشرة مرة ، تتفكرون ثلاث آيات ، يتفكروا آيتين ، تتفكروا جاءت في آية واحدة ، من تلك الآيات

- على سبيل المثال لا الحصر - قوله تعالى: { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } { الحشر 21 . } { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } { الأعراف 176 } { كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } { يونس 24 . } { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } { الرعد 3 . }

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقرر فريضة التفكير في الاسلام وتبين منها ان العقل الذي يخاطبه الاسلام هو العقل الذي يعصم عقل وضمير صاحبه من الزلل ويدرك الحقائق ويميز بين الامور ويوازن بين الاضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار والرؤية، انه العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال وليس العقل الذي يقابل الجنون ، لأن الجنون يسقط التكاليف في جميع الاديان والشرائع وكذلك القوانين الوضعية (4) .

فضل العلم والعلماء :

تحدث القرآن عن فضل العلم وعن ميزة الإنسان العالم الذي يُطبق ويعمل بما يعلم في حياته - باعتباره العالم الحقيقي - اما الذي يعلم ولا يطبق ولا يعمل بما علمه فهو جاهل مدعي وعقوبته اشد عند الله من الذي لم يتعلم ، وشبه الله العارف بحقيقة الامور بالإنسان المبصر الذي يرى ويعرف كل شيء بعينه - لا كما يُنقل له من الآخرين - ويسمع مباشرة بأذنيه هو - لا بأذان الآخرين - اما الجاهل فهو اعمى البصيرة والبصر، لا يرى الاشياء بعينه لأنها مصابة بالعمى المعنوي - وليس المادي - ولا يسمع بأذنيه لأنها مصابه بالصمم المعنوي - وليس المادي - فالعلم نور والجهل ظلام دامس ، يقول تعالى في ذلك : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } { الأنعام 50 ، ويقول كذلك : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ } { الرعد 16 ، وتتوالى الآيات { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ } { غافر 58 . } { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } { هود 24 . } وهل من العقل والمنطق ان يتساوى العالم والجاهل في معرفتهم للأمور؟ وهل يمكن ان تتساوى شهادة الاعمى عن شيء لم يره مع شهادة المبصر الذي رأى ذلك الشيء بأمر عينيه؟ كما قال تعالى : { وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور أن الله يُسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور } { فاطر : 21 - 22 . } وكما قال تعالى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } { الزمر 9 . }

ولكن لماذا هذا التفضيل للعالم - الذي يعمل بما يعلم أما الذي يعلم ولا يعمل فهو أسوأ حالاً من الجاهل - على الجاهل الذي لا يعلم شيء أصلاً وهذا هو جوهر الفرق بين الجهل البسيط والجهل المركب ؟

ببساطة لأن العالم هو الذي يعرف ربه معرفة حقيقية ، ويشهد له بالألوهة والتفرد والتوحيد { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } آل عمران: 18. ويخشاه ويطيع أوامره ويتجنب ما نهى عنه { كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } فاطر: 28. ولذلك كان الإمام الشافعي يعرف العلم بقوله : إنما العلم الخشية . والعالم هو الذي يفهم الامثال التي يضربها الله عن الامم السابقة ويتعظ بها ويعرف : انه اذا فعل كما فعلوا فسوف يعاقبه الله كما عاقبهم { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } العنكبوت 43

تلك الآية تعني ان هناك تلازماً بين العقل - بما هو أداة للمعرفة - وبين العلم ، فلا يمكن أن يعقل تلك الامثال التي يضربها القرآن الكريم ويتعقل العبرة منها ويستفيد منها سوى العالمون بقيمتها وبقيمة العقل الذي يقتفي أثرها ليستفيد منها في الحاضر والمستقبل .

ما هو العلم ؟ :

لقد عرف العلماء والمفكرون العلم بتعريفات كثيرة ، لكنها تجمع على انه يعني : انكشاف المعلوم انكشافاً تاماً واليقين به ، بحيث لا يرقى اليه الشك ، او العلم بالموجود على ما هو عليه في الوجود ، والعلم هو المعرفة بنسبة 100% وتسمى علم اليقين .

والعلم اليقيني : هو الذي ينكشف في المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم كما قال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال . والقرآن يحذر الإنسان من الاتكال والاعتماد على الحواس في الوصول الى العلم والمعرفة من دون الرجوع الى العقل ، لأن المعرفة الحسية سطحية ترى مظاهر الاشياء الخارجية ، ولا تستطيع النفاذ الى جواهرها ، وحده العقل يستطيع ان يجرد الاشياء من عوارضها - اشكالها الخارجية - وينفذ الى لبها وجوهرها ويستطيع الوصول الى العلم والمعرفة الحقة ، يقول تعالى : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً } الإسراء : 36 .

أي على الإنسان أن لا يشهد على أي شيء بمجرد أنه سمع الناس يقولونه ، بل عليه ان يتأكد من صدق الخبر عن طريق الرؤية المباشرة او السماع المباشر ، ولا يخوض في اعراض الناس من دون دليل يتأكد منه بنفسه ، وكما قال تعالى عن مروجي حديث الافك الذي طال السيدة عائشة زوج

الرسول رضي الله عنها : { إِذْ تَقَوَّيْتُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } النور 15 .

ويحذر القرآن الإنسان من الخوض في موضوعات لا يعرف عنها شيء، ولا يجادل الا في شيء يعلمه علم اليقين : { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران 66 . وعليه كذلك أن لا يحكم على أي شخص - ولا على أي موضوع او فكرة - بمجرد انه سمع عنها ممن ينتمي معهم الى حزب او مذهب أو منطقة أو قبيلة ، وان لا يحكم على صواب الفكرة أو خطائها الا اذا كان متأكدا مما يقول ولا يصدر الاحكام جزافا لأنه سوف يصيبه ما اصاب من كانوا قبله ووقعوا في نفس خطئه ، كما قال تعالى : { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } يونس 39 .

وهناك آفات فكرية تكون نتيجة الاستخدام الخاطئ للعقل وإعمال التفكير في غير محله حذرنا منها القرآن الكريم وهو ما سنعرفه لاحقا .

آفات التفكير التي نهى عنها القرآن :

هناك آفات قد تصيب الفكر الإنساني في كل زمان ومكان نهى عنها القرآن ، لأنها تحول دون استخدام العقل للوصول إلى الحقيقة أو استخدامه في الباطل أو ضد العقل نفسه كما قال تعالى : { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ } وهذا تفكير ضال ومقلوب لأن صاحبه الوليد بن المغيرة عمد لتغليب هوى النفس على الحقائق الواضحة البيّنة ، ومن تلك الآفات التي تُصيب التفكير هي :

1 - التفكير داخل صندوق العقل الجمعي :

والتأثر بأسلوب الجماعة وسلوكها دون وعي ، ويمكن أن نسأل : ما هو العقل الجمعي ؟ والجواب : هو العقل الناشئ عن تأثير البيئة التي يولد فيها الشخص والمجتمع الذي ينشأ فيه ، فينطبع ذلك التأثير في أسلوب حياته تفكيراً وسلوكاً من خلال عاداته وآراءه وانطباعاته وتقييمه الخاص للأشياء والمجتمع قبولاً أو رفضاً والتي تراكمت عبر السنين وترسخت لدرجة أنها أصبحت لديه مسلمات لا يمكنه الشك فيها ، لأنها تشكل ضمير الفرد ووجدانه وعقله وروحه التي تسري في كيانه ذاتاً ونفساً وروحاً وعقلاً وتنعكس سلوكاً معاشاً على جسمه والعقل الجمعي عقل سطحي لأنه قليل الفهم يتقبل الآراء والأفكار دون أن يحللها أو ينقدها . والتفكير في إطار العقل الجمعي هي أولى آفات التفكير التي نهى عنها القرآن ونظرية العقل الجمعي هي نظرية قال بها عالم الاجتماع الفرنسي (غوستاف لوبون)

وفحواها باختصار : ان المجتمع - بعاداته وتقاليده وأعرافه - يمنح الافراد داخل المجتمع عقلاً جمعياً يجعلهم يفكرون ويشعرون ويعملون ويتصرفون بطريقة واحدة متشابهة و كأنهم فرد واحد لا فرق بينهم و تضيع معه شخصية الإنسان وحرية واستقلاله ، فمثلاً : القبيلة في بعض المناطق تفكر عن طريق شيخها لجميع افرادها ، فينفذ الافراد ما يقول الشيخ من دون مناقشة وحتى من دون اقتناع ، وظاهرة الثأر خير دليل على ذلك ، وكما قال الشاعر الجاهلي قديماً : وهل انا الا من غزيت ان غزت غزيت وان تُرشد غزيتة ارشد . وقس على ذلك : الفرد داخل المنطقة التي ولد وعاش فيها وداخل الحزب الذي ينتمي اليه ، وداخل الدين الذي يعتنقه وداخل المذهب ، ، وداخل الطائفة وهكذا دواليك .

وقد نبه القرآن من خطورة العقل الجمعي على استقلال الفرد وحرية وتفكيره ، عندما أتهم كفار قريش الرسول الكريم بالجنون ، فعاب عليهم القرآن ذلك قائلاً : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } الأعراف184 . والإنسان مع الجماعة يفكر كما تفكر الجماعة - حتى اذا كانت على خطأ بيّن - ومثاله الإنسان الذي داخل المسرح يضحك مع الناس لأتفه الاشياء ولو شاهد المسرحية لوحده لما ضحك الا على ما يستحق الضحك والإنسان وهو يمشي في مظهره يردد ما يقال حتى دون اقتناع ، وهذا هو حال الكافرين مع النبي - عليه وعلى آله افضل الصلاة وازكى التسليم - فهم يعرفون قدره وخلقه وأمانته وصدقه ويسمونه الصادق الامين ، ومع ذلك يتهمونه بالجنون ، وهل من العقل والمنطق أن الشخص الذي لم يكذب في حياته قط قد يكذب بعد بلوغه سن النضج في الأربعين ؟ وهل من العقل والمنطق أن تحفظ مالك عند شخص تتهمه بالجنون ؟ لذلك خاطبهم القرآن قائلاً: { قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } سبأ46 . ومعنى الآية : ليجلس كل اثنان منكم معا وليفكرا وليجلس كل منكم لوحده ويبدأ في التفكير: هل هذا الذي نسميه الصادق الامين مجنون ؟ وهل يكون المجنون على الدوام صادقاً واميناً ؟ وهل من يضع ماله لدى المجنون يعتبر عاقلاً ؟ عندها سوف يتعرف الإنسان على الحقيقة اذا فكر بالعقل والمنطق بعيدا عن تأثير الجماعة .

وميزة العقل المفكر - خارج صندوق العقل الجمعي - تتجلى في استطاعته من أنتاج وعي فردي مستقل يمكنه من اتخاذ موقف مختلف عن موقف العقل الجمعي للمجتمع الذي يعيش فيه وهذا الاختلاف هو الأساس الذي تقوم عليه الرؤية النقدية للمجتمع وقد دعا القرآن الكريم إلى ذلك الاختلاف

والتميز عندما قال تعالى : {قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا } سبأ:46 . وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى لكل من يريد الوصول الى الحقيقة بأن ينعزل بوعيه وفكره وجسمه عن الوسط الذي يعيش فيه وعن أفكاره ومفاهيمه ومقولاته ورواسب العادات والتقاليد فيه ، ثم يقوم بالتفكير والتأمل الفردي ليرى الأشياء بعيداً عن سلطة الجماهير وسلطة العقل الجمعي القاهر ، ومن الأفضل أن ينعزل اثنان عن ذلك الوسط من أجل التماثل وتلقيح الأفكار في سبيل استبانة الحق وفهم الأمور على حقيقتها (5) ..

الأكثرية ليست مقياساً للصواب :

ويرتبط بالعقل الجمعي سؤال هو : هل الأكثرية دائماً على صواب ؟ القرآن يُجيب بأن الأكثرية ليست على صواب دائماً ، لأنها تفكر في إطار العقل الجمعي كما اسلفنا واتباعها يؤدي الى الضلال ، لذلك حذر الله رسوله من اتباع الأكثرية قائلاً : {وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } الأنعام116 .

وذلك لأن الأكثرية في اغلب الاوقات يتبعون الظن ولا يصلون الى العلم المؤدي الى اليقين ويكرر القرآن في احدى عشر آية قوله تعالى : { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الأعراف187 . وفي اربع آيات يقول تعالى : { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود17 . وفي ثلاث آيات يقول تعالى : { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } البقرة243 . وذلك يعني أن اكثر الناس لا يعلمون الحق ولذلك حذر منهم القرآن في ذلك العدد الهائل من الآيات ، وكما قال الصحابي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك . وهذا قد اجرنا الى موضوع الديمقراطية التي ينادي بها البعض كحلٍ للمعضلة السياسية التي تعاني منها الأقطار العربية .

2 - آفة التعميم :

والتعميم آفة أخرى من آفات التفكير التي نهى عنها القرآن الكريم ، فاذا أخطأ شخص ما من أسرة معينة او من قبيلة معينة او من منطقة معينة او من حزب معين او من دين معين او من مذهب معين او من طائفة معينة ،فإن الكثير من الناس يعمم ذلك الخطأ على جميع افراد الاسرة والقبيلة والحزب والمنطقة والدين والمذهب ،حاكماً عليهم انهم جميعاً مخطئون ومذنبون ، وقوله السابق هو الخطأ الجسيم بعينه لأنه يخالف مبدأ قرآني هام وهو مبدأ المسؤولية الفردية التي يتحملها الفرد لوحده، كما أكد على ذلك سبحانه وتعالى بقوله : {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَآ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ } فاطر18 .

فالناس في تصرفاتهم ليسوا سواسية وذلك لاختلاف نفسياتهم وثقافتهم وتفكيرهم ، قد يتشابهون شكلاً (المظهر الخارجي) لكنهم يختلفون مضموناً ومحتوى (من الداخل نفساً وعقلاً) وذلك ما يميزهم عن الحيوانات التي تتشابه شكلاً ومضموناً، يقول تعالى موضحاً ذلك الاختلاف بين أهل الكتاب أنفسهم : {لَيْسُوا سَوَاءً مَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } آل عمران 113 . ويقول كذلك عنهم : {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } آل عمران 75 .

ومن أكبر الأخطاء التي تنافي التفكير الموضوعي وتؤدي إلى آفات التفكير : إصدار الأحكام العامة في القضايا الإنسانية وتعميمها على الجميع وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن يوضح لنا خطورة التعميم ، يتضح ذلك في قوله تعالى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } التحريم : 10-11 .

والمعنى الذي أراد الله ايصاله لنا في تلك الآيات ، أن الكفر وجد في بيت نبي من انبياء الله الكرام وخرج الإيمان من بيت أعدى أعداء الله وفي ذلك تبصرة لأولي الألباب حتى لا يحكموا بالإيمان والكفر لأهل بلدة أو قبيلة أو بيت بصورة عامة (6) .

الطرق المؤدية إلى آفات التفكير :

والقرآن ينبه ويحذر اصحاب العقول من الوقوع في براثن آفات التفكير التي نهى عنها ، وحذر من الاشياء التي تؤدي الى ارتكاب الاخطاء التي يقع فيها الإنسان وقد تحدث - للإنسان العادي او للباحث العلمي او للمفكر ، وحدد القرآن الاشياء التي تجر الإنسان الى اقتراف الاخطاء وهي :

1- الهوى :

قال اللغويون الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه قال الله عز وجل ونهى النفس عن الهوى معناه نهاها عن شهواتها . (لسان العرب 15/371) . والله سبحانه يحذر الإنسان من اتباع هواه ، لأن ذلك يؤدي به الى أن يحيد عن الحق لحساب هواه ، قال تعالى : {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ص 26 . والهوى قد يقهر الإنسان ويغريه بتغيير الحقيقة ، انتصاراً لنفسه او

لأقرب المقربين اليه (الوالدين ، الاخوة ، الاقارب ، الاصدقاء) وتأتي بعد ذلك التحيزات الحزبية و المناطقية و المذهبية و الطائفية الضيقة .

ولكن كيف يمكن التغلب على الهوى ؟

العدل ضد الهوى :

يمكن ذلك عن طريق اتباع القرآن الكريم الذي يأمر الإنسان بالعدل - ولا يأمره بالإيمان - كما قال تعالى : { إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى } النحل : 90. ويأمره كذلك أن ينشد العدل ويقول الحق ولو كان ضد نفسه أو أقرب المقربين اليه كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135.

وكما قال ابن عباس رضي الله عنه: شرُّ إليه عبد في الأرض الهوى، لأنه باب يدخل منه الشيطان ، وحاجز منيع يصد الإنسان عن رؤية طريق الحق من أجل ذلك حذر القرآن الإنسان منه ،موضحاً أنه لا يستقيم مع أصول التفكير الموضوعي وقد يتحوّل الهوى إلى صنم يعبد من دون الله وخطر الأصنام هي الأصنام المجردة، مثال ذلك ان يتخذ الإنسان من نفسه ومن مصلحته ومن هواه صنما ، وذلك عندما يعبد رأيه وهواه ومصلحته ويفضله على الحقيقة ، كما قال تعالى : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } الجاثية 23 .

" وكل ما تعبد من دون الله شرك ... إذا كنت عبدا لنفسك وهواك ومصلحتك فأنت مشرك ،وإذا كنت عبدا لعصية العائلة او القبيلة او العنصر او الجنس فأنت مشرك ،وإذا استعبدتك فكرة مجردة او نظرية افسدت عليك مسالك تفكيرك فأصبحت ترفض مناقشة أي فكرة اخرى فأنت راعع امام صنم وان كان صنما مجردا ومنحوتا من الفلسفة لا من المادة " (7) . لقد جعل القرآن في مقدمة الأسباب التي تؤدي لدخول الجنة ، تحذير النفس عن اتباع الهوى ،كما قال تعالى : { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ } النازعات 40-41

و يمكن التغلب على الهوى من خلال تحقيق العدل - بحسب المنطوق القرآني وليس المفهوم الفقهي أو الإنساني المنحاز- الذي جعل من إقامة العدل سبباً لإرسال الرسل كما اشرنا .

و يمكن تحقيق العدل من خلال عدة خطوات ومنها :

أ - العدل في الأقوال : يطلب القرآن من المؤمن العدل والانصاف في أقواله وأفعاله مع الاعداء قبل الاصدقاء ومع الاباعد قبل الاقارب ، كما قال تعالى : { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ } الأنعام : 152 .

وعلى المؤمن أن يكون عادلاً في اقواله وينطق بالحق حتى مع من يكرههم من الخصوم والاعداء ، يقول سبحانه وتعالى موضعاً ذلك : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } المائدة: 8 . يطلب الله من الذين آمنوا ان يكونوا قائلين (الله) بحقوقه ، شهداء (بالقسط) أي بالعدل (ولا يجرمنكم) أي : لا يحمّلنكم (شنان) بغض (قوم) أي الكفار (على ألا تعدلوا) فتنالوا منهم لعداوتهم (اعدلوا) في العدو والولي (هو) ، أي : العدل (أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) فيجازيكم به .

ويطلب القرآن من الإنسان الا يعامل من يبغضهم بقسوة واعتداء يفهم منه الانتقام لهوى النفس وليس نصرة الحق ، كما قال تعالى : { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبُرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } المائدة: 2 .

ب - العدل في الحكم بين المتخاصمين باعتباره التطبيق العملي للعدل كما قال تعالى : { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } النساء : 58 .

ج - العدل في الشهادة وأقامتها لله كما قال تعالى : { وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } الطلاق : 2 .

وبذلك يمكن التغلب على الهوى من خلال تحقيق العدل ، لأن الهوى قد يؤدي إلى آفات فكرية أخرى ومنها :

2 - تزيين سوء العمل :

والهوى قد يُزيّن للإنسان اعماله التي تتوافق معه من حيث المصلحة التي يمكن ان يحصل عليها - مادية كانت ام معنوية - او الانتماء الى جماعة (عرقية ، مناطقية ، دينية ، طائفية ، مذهبية ، حزبية) فيعتقد انه يدافع عن الحق وهو لا يعي انه يدافع عن ما زيّنه له هواه ومصالحته وانتمائه وإن كان يعي ذلك فتلك هي الطامة الكبرى يقول تعالى : { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } محمد: 14 . { وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ } غافر: 37

{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فاطر8 .

وقد يأتي تزوين العمل من خارج الإنسان عن طريق الشيطان - والشيطان هو عدو الإنسان الأول كما يقول القرآن - الذي يستطيع النفاذ الى داخله - الى نفسه المستعدة لذلك ، فالشيطان هو النفس وقد حققت كل ما تريد - بحسب كلام المتصوف النفري - فتأثر نفسه على عقله وتفكيره ، بعد أن يبتعد عن النص الالهي وعن العقل فيكون فريسة سهلة للشياطين ، سواء منهم شياطين الانس - وهم الاخطر - ام شياطين الجن ، فشياطين الانس هم الاصحاب ورفقاء السوء الذين يزينون للإنسان اعماله التي تتفق مع مصالحهم الحزبية او توجهاتهم الايديولوجية ، وكما اخبر عنهم الله تعالى بقوله : { شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } الأنعام112 . واذا فشلت شياطين الانس في مهمتها في تزوين اعمال السوء للإنسان، فإن شياطين الجن تتولى المهمة وتعمل على تزوين تلك الاعمال للإنسان كما اخبر عن ذلك الله سبحانه وتعالى بقوله : { قُلْ لَئِنْ آتَيْنَا آيَاتِنَا بِزُخْرُفٍ لَيُؤْتَيْنَاكَ اللَّهُ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } الأنعام43 . { وَإِذْ زَيَّنَّا لِلْإِنْسَانِ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الأنفال48 .

وقد اخبر سبحانه وتعالى عن تلكم النفس من الناس الذين زينت لهم اهوائهم المريضة وشياطينهم البغيضة سوء اعمالهم فظنونها حسنة ، واعتقدوا - زوراً وبهتاناً - انهم يسرون على الطريق الصحيح ، وان اعمالهم تلك هي خير الاعمال ، يقول تعالى في ذلك : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } الكهف103 . ومن الأمراض الفكرية الخطيرة والتي تكون سبباً في تعطيل العقل والتفكير التي حذرنا القرآن الكريم منها في العديد من الآيات :

3- اتباع الظن :

الظنُّ كما عرفه ابن منظور في لسان العرب : شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيانٍ إنما هو يقينٌ تدبُّرٌ فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم . (لسان العرب /ج13/ ص272) واذا كان العلم كما اسلفنا هو معرفة بنسبة 100% ويسمى علم اليقين، فالشك هو معرفة بنسبة 50% ، أي يتساوى في الشك العلم الراجح والمرجوح بحسب اصطلاح الفقهاء، أما الظن فهو معرفة بنسبة 51% اي انه يزيد على الشك بدرجة ،فهو علم الطريق الراجح بالنسبة للشك، لكنه اقل من العلم اليقيني ،لذلك حذر الله سبحانه وتعالى من بعض الظن - وليس من كل الظن - لأن بعضه قد يؤدي الى يقين وبعضه

الأخر يؤدي الى شك وريبة ، من اجل ذلك قال عمر بن الخطاب : من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بعلمه . والقرآن عندما تحدث عن الحكمة حذر في نفس الوقت من الاعتماد على الظن او الهوى في الحكم على الامور ، او النظر اليها من تلك الزاوية الضيقة " ويعد البعد عن الظن والتخمين أهم خطوة على طريق الموضوعية وهي الخطوة التي إن زلت فيها القدم لم يستقم ما بعدها من خطوات أبداً " (8)

لأن الظن معرفة ناقصة تشوبها الكثير من الامور كي ترتقى الى مقام المعرفة الصحيحة ، ولا يستطيع معه الإنسان الوصول الى الحق او الحقيقة ، يقول تعالى محذراً من الظن : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } الحجرات 12 . والكثير من الناس يبنون افكارهم وآرائهم ومعتقداتهم على الظن بأنهم على الحق وعلى الطريق الصحيح دون أن يكلفوا انفسهم عناء البحث والمراجعة للكثير من الآراء التي شوهدت افكارهم - منها على سبيل المثال : افكار تنظيم القاعدة وداعش في فهمهم للجهاد خير مثال على ما نقول - وجعلتهم يعتقدون انهم يحسنون صنعا .

ومن الطرق غير العقلية - التي تصيب الفرد والمجتمع - وتؤدي إلى آفات التفكير ، الذي حذرنا منها القرآن الكريم في العديد من الآيات موضحاً انها كانت سبباً في إعراض الكثير عن الحق وعن آيات الله سبحانه وتعالى هو ما نسميه بالتقليد الاعمى الذي ذمه الله في القرآن من خلال العديد من الآيات القرآنية .

4 - التقليد الاعمى :

لا يُريد منك القرآن ان تقلد احداً ، يُريد منك ان تكون شخصيتك المستقلة الناضجة وتستخدم عقلك وتفكر كي تصل الى الحقيقة ، ولا تدع الآخرين يفكرون بالنيابة عنك : (الاب والام ، الاستاذ ، المفتي ، الشيخ ، المجتمع ، الحزب ، المذهب ، الاصدقاء) يُريد منك ان تكون نفسك فقط بعيداً عن وصاية الآخرين وفرضهم عليك قناعتهم واعتقاداتهم ورؤيتهم للأمور - من وجهة نظرهم الشخصية - لأنك من ستحاسب اولاً واخيراً على اعمالك ولن يتحمل معك مسؤولية اعمالك احد ممن يفكرون نيابة عنك . يقول تعالى موضحة حقيقة المسؤولية الفردية: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } فاطر 18 . { قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ { الأنعام 164 .

ويقول تعالى فاضحاً عقلية المقلدين الذين لا يفكرون ويدعون ابائهم يفكرون نيابة عنهم : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ { البقرة 170 . } وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ { المائدة 104 } وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ { الأعراف 28 . } قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ { يونس 78 . } قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ { الشعراء 74 . } وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ { لقمان 21 .

كل تلك الآيات تحذر من تقليد الآباء والأجداد - وهم الاقرب للإنسان - فما بالكم بمن يقلد الاباعد عنه لمجرد الهوى او التحزب او التمثهه .
فالتقليد هو الموت - ولكن على الطريقة الإسلامية عند من يقلدون السلف والمشايخ - وهو موت مادي ومعنوي في نفس الوقت ، وكم كان العلامة ابن خلدون محقاً قال : إتباع التقاليد لا يعني أن الأموات أحياء بل أن الأحياء أموات ، ذلك أن الفطرة السليمة تنفر من التقليد لأنه يتنافى مع سنن الله في الكون والقائلة بالتغيير والاختلاف ، من اجل ذلك جاءت الرسالات النبوية لمحاربة التقليد لأنه يحول الإنسان إلى حيوان يتبع القطيع دون علم أو مناقشة ، فلماذا يجب علينا أن نقلد السابقين في كل شي حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلنا معهم؟

هل يجب أن نقلدهم في كل شي في المأكل والملبس والمظهر وفي قضاء الحاجة في الخلاء بدلا من الحمامات؟ هل يجب أن نتخذ الجمل وسيلة للمواصلات ووسيلة للطواف حول الكعبة؟ هذا ما فهمه جهيمان العتيبي الذي أراد الاستيلاء على الكعبة المشرفة - في نوفمبر عام 1978م - كي يطوف راکبا جملة اقتداءً - على خذ زعمه - بمن جاء يحارب الجمود والتطرف والتقليد والآبائية .

علاج القرآن لآفات التفكير :

وقد عالج القرآن آفات التفكير التي تؤدي بالإنسان الى الابتعاد عن الحق وعدم معرفة الحقيقة بالاتي :

النظر والفكر والتأمل و طلب البرهان :

والقرآن باعتباره كتاب الهي قائم على العقل والمنطق في حجاجه مع الآخرين ، يطلب من كل من يزعم انه يمتلك الحقيقة ، البرهان على صدق ما يقول ، على اعتبار ان البرهان العقلي يتفق على صدقه الجميع في كل زمان ومكان ، ويحث القرآن الإنسان على ان يطلب من الشخص الذي يحاوره البرهان على صدق ما يقول ، وان يثبت اقواله بالعلم - وليس بالظن - وبالأدلة البرهانية لا بالأدلة الجدلية ، وبالمقدمات الصادقة لا المشهورات او المظنونيات " لقد أقام القرآن قواعده على اساس البرهان والتجربة والتحرر من الظن والمتابعة بغير دليل واتباع مذاهب السابقين تقليداً ومتابعته بغير حق ... وعدم تبني أي فكرة حتى الدين نفسه إلا عن طريق ما يبثه العقل الصافي من ادلة يقينية وإجراء البحث عن الحقيقة في ضوء الهدى الرباني من القرآن الكريم " (9) .

ويورد القرآن العديد من الآيات التي يطلب فيها من مدعي الحقيقة البرهان على صدق ما يدعون ، يقول تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } البقرة 111 . { أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ } الأنبياء 24 . { أَمْنَ بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } النمل 64 .

وإذا كان القرآن الكريم قد أنقسم إلى عقيدة وشريعة وقصص ، فإن الغرض من عرض قصص الأمم الماضية هي الاستفادة من الماضي وأخذ العظة والعبرة في الحاضر والاستفادة منها في المستقبل .

الاستفادة من الماضي :

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تحث المؤمن على أخذ العبرة والعظة من الماضي ، منها على سبيل المثال : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 . { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } النمل 69 . { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ { الروم 9 .
كل تلك الآيات هي نماذج فقط وهي توضح أن القرآن الكريم يطلب من
المؤمن به أن يأخذ العبرة والعظة من الماضي لينتفع بها في حاضره
ومستقبله ويقارن بين ما عاشه السابقون في أيامهم وما نعيشه نحن من
ظروف مشابهة لما عاشوه كي لا نقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها
السابقون ، لكن العبرة الوحيدة التي أخذها العرب والمسلمون من الماضي
هي الا يعتبروا به أبداً .
كانت تلك بعض الخواطر المستفقاة من القرآن والله تعالى أعلم وهو من
وراء القصد .

قائمة المراجع :

- (1) ينظر: ابن منظور : لسان العرب مادة : هدى .
- (2) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية . دار نهضة مصر . القاهرة . ط6 /
2007م . ص3
- (3) ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . مؤسسة جمال
بيروت . (د - ت) . ص 268-269 .
- (4) ينظر : عباس العقاد : التفكير فريضة اسلامية . ص14 . سابق .
- (5) ينظر : عبدالكريم بكار : تكوين المفكر خطوات عملية . دار السلام ، القاهرة
ط2 / 2010م . ص64 .
- (6) ينظر : عبدالكريم بكار : فصول في التفكير الموضوعي ، دار القلم ، دمشق .
ط5 / 2008م . ص54 .
- (7) مصطفى محمود : القرآن محاولة لفهم عصري . دار العودة . بيروت .
ط / 1979م . ص117 .
- (8) عبدالكريم بكار : فصول في التفكير الموضوعي . ص63 . سابق .
- (9) أنور الجندي : سقوط العلمانية . دار الكتاب اللبناني ، بيروت (د - ت) ص
156 .

ثقافة التعايش : الآخر كضرورة !

لعب الآخر المخالف دوراً محورياً وهاماً في الفكر الإسلامي من خلال تواجده في النص القرآني - الكفار والمشكين وأهل الكتاب - الذي عرض آراء الآخر المخالف والحوار معه وذلك من خلال الحوارات التي خاضها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - مع مشركي مكة ومع اليهود والنصارى في المدينة ومن خلال وثيقة المدينة التي مثلت دستوراً للتعايش مع المخالفين على أساس المواطنة وقد ساهم الآخر - والمتمثل باليهود والنصارى والصابئة - في ظهور علم الكلام الذي كان يستهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ضد الشبهات التي طرحها الآخر والتساؤلات التي أثارها حول العقائد الغيبية طالباً الاجابة العقلية عنها وليس الاجابات القرآنية التي لا يعترف بها .

كل ذلك شكّل الشخصية الإسلامية التي تعايشت مع الآخر باعتبار ذلك التعايش ضرورة حياته وليس ترفاً فكرياً وخصوصاً في بلاد الرافدين والشام الكبرى التي تواجد فيها اتباع الرسالات السماوية المختلفة .

ولتأكيد منهجية الانفتاح على الرأي الآخر في الثقافة الإسلامية في ميدان العلم والمعرفة أهتم بعضهم في التأليف والتصنيف حول مسائل الخلاف ، عرضاً ومقارنة وأصبح ذلك لوناً من ألوان المعرفة والبحث في تلك الثقافة ومن اوائل الكتب المؤلفة في ذلك الميدان كتاب (اختلاف العلماء) لمحمد بن نصر المروزي (ت 294هـ) وكتاب (اختلاف الفقهاء) لأبي جعفر الطحاوي (ت 321هـ) ومن اوسع تلك الكتب كتاب (الخلف) للشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت 460هـ) وقد صار من مقاييس قوة العالم والفقهاء معرفة مدى إحاطته بمختلف الآراء وأدلة استنباطها وقد نُقل عن الإمام أبو حنيفة (80 - 150هـ) - عند مناظرته للإمام جعفر الصادق وإعجابه بإحاطته بمعظم الآراء المخالفة له - قوله : " أعلم الناس اعلمهم باختلاف الناس " وكان الإمام جعفر الصادق (80-148 هـ) يأمر تلامذته عند افتائهم للناس أن لا يتجاهلوا آراء المذاهب الأخرى (1) .

من هو الآخر :

الآخر هو المخالف لك جنساً ونوعاً وعرقاً ولوناً وعقيدةً وديناً ومذهباً وطائفةً وحزباً، لغةً وثقافةً ، فكراً وسلوكاً زماناً ومكاناً ، فلسناً مخيرين في وجود الآخر فهو قضاء وقدر أوجده الخالق لحكمة في خلقه لتكون الحياة أكثر ثراء وتنوعاً . قد يكون الآخر جاراً لك في السكن أو زميلاً لك في العمل - أو على مقاعد الدراسة - أو شريكاً لك في الوطن والانتماء الحضاري مما يعني " أن الآخر جزء من حياتنا أفراداً وشعوباً ودولاً

نتداخل معه ونتأثر به ونؤثر فيه وهذا يعني أنه لا يمكن الغاء الآخر ولا الانفصال عنه كلياً " (2)

والآخر هو المرأة التي من خلالها يمكن أن نرى فيها عيوبنا ، لان الإنسان الفرد (او المجتمع ، الحزب ، الدين ، المذهب) لا يدرك عيوب نفسه - لأنه لا يستطيع رؤيتها او لأن أناه تمنعه من رؤيتها - او ربما يتغافل عنها ، اما الآخر فهو يرى عيوبك مباشرة ، لأنه يركز عليها ولا يرى سواها .

والآخر شرط للوجود وأساس لبناء الحياة ولا يمكن الاستغناء عنه ، فمثلاً : المرأة - آخر مخالف للذكر جنساً - وجودها يرتبط بوجوده وجوداً وعدمياً . والغرب - الأوربي ، الامريكي - آخر مخالف للشرق ديناً ولغة وثقافة وسلوكاً - وهو شرط وجود واكتمال حياة بالنسبة للشرق - وكذلك الشرق بالنسبة للغرب - لأنه يعيش بفضل مخترعاته وتكنولوجياه وأدويته ومعظم وسائل العيش والرفاهية ، كما أن الغرب يعيش على المواد الخام والأسواق التي يوفرها له الشرق وهذا يمثل قمة التكامل في الحياة .

اهمية وجود الآخر في الحياة :

يشكل الآخر جزءاً هاماً في حياتنا لا يمكن اغفاله - سواءً أكان فرداً او حزباً او ديناً او طائفة او مذهباً او شعباً او طناً - نتعامل معه كأفراد وكشعوب وكدول ، نتداخل معه ، نتأثر به ونؤثر فيه ، ولا يمكن الغاءه او الانفصال عنه الا بعملية قيصرية يموت فيها احد الطرفين وربما يموتان معاً ، ويجب أن يشكّل الآخر في حياتنا المعاشه متناً هاماً - وليس هامشاً ضئيلاً لا يكاد يُرى - وذلك لأن وجوده اساس يقوم عليه التنوع والاختلاف الذي يضيف للحياة الإنسانية طعماً ومذاقاً مقبولاً وشهيةً للعيش .

والتنوع والاختلاف هو سنة الله في الارض وفطرته التي لا نستطيع تغييرها { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } الروم 30

فكل إنسان حقيقي اصلي - غير مُقلدٍ للآخرين - يجب ان يكون له شخصيته المستقلة ، وتفكيره المتميز وطابعه الفريد ، وكل تلك الصفات تميزه عن الاخرين ، باعتبارها بصمته المعنوية ، ويجب ان توازي بصمته المادية - سواء بصمة اليد ام بصمة العين أو بصمة الرائحة - التي يختلف بها عن جميع الناس في كل زمان ومكان ، ذلك الاختلاف كان سبباً للخلق كما اخبر تعالى بقوله : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } هود 118-119

واختلاف النبات وأشكالها واحجامها واختلاف ألوانها وطعومها ، واختلاف الجبال والحيوان والناس ، آية فريدة من آيات الله الدالة على قدرته ، كما اخبر تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ { فاطر 27-28

واختلاف لغات الناس والوانهم وثقافتهم آية تدل على عظمة الواحد الذي
خرج منه ذلك الكثير المتنوع كما قال: {وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ { الروم 22
وبالتالي يشكل اختلاف اللغات والثقافات سببا لاختلاف الشرائع والمناهج
والطرق التي تؤدي جميعها الى خالق واحد ، فكل الرسالات هي طرق
ووسائل للوصول الى غاية واحدة ودين واحد وهو الإسلام و التسليم لله
سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ { المائدة 48 .

الذات والآخر :

هناك علاقة متبادلة بين الذات والآخر فإذا أردنا أن نتعرف على ذاتنا
وهويتنا علينا أن نتعرف على الآخر المختلف عنا كي نعرف ما يميزنا عنه
- والعكس بالعكس - من أجل ذلك كان لزاماً علينا أن نتعرف على هويتنا
كي نعرف الآخر ونستطيع تلمس المشترك بيننا وبينه .

معنى الهوية :

معلوم لدى المشتغلين بعلم المنطق أن الهوية - أو الذاتية - " مأخوذة من (هو .. هو) بمعنى جوهر الشيء وحقيقته المشتملة عليه اشتمال النواة على
الثمرة وثمارها ... وهوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغير ... إنها
كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره " (3) .

والهوية التي تميز الفرد هي خلاصة تفاعل بين الفرد - وكذلك المجتمع - مع
ماضيه الذي يمتد بجذوره بعيدا وبين خبرات الطفولة في شتى المجالات من
جهة وبين تطلعاته المستقبلية ضمن الفرص المتاحة والحدود الواقعية
لطموحاته الشخصية من جهة أخرى .

وثوابت الأمة - التي تتجدد ولا تتغير هي الدين - والمعتقد بكافة اشكاله -
واللغة باعتبارها قالباً للفكر ووسيلة للتفاهم والأخلاق التي تفرق المجتمع
الإنساني عن القطيع الحيواني وكذلك الثقافة باعتبارها أسلوب حياة الفرد
والمجتمع على السواء .

وتُعرف الهوية في الفلسفة - بحسب المعجم الفلسفي - بأنها : " حقيقة الشيء
من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضاً وحدة الذات " . ويرى (ريجاردي
جنكر) أن الهوية الاجتماعية هي " تصورنا حول من نحن ومن الآخرون

وكذلك تصور الآخرين حول أنفسهم وحول الآخرين . وتأتي أثر عملية التفاعل الإنساني و هي تستلزم عمل مقارنات بين الناس كي تؤسس أوجه التشابه والاختلاف بينهم . فأولئك الذين يعتقدون بوجود التشابه بينهم وبين الآخرين يشتركون في هوية تتميز عن هوية الناس الذين يعتقدون أنهم مختلفون ولا يشتركون بذات الهوية " (4)

وموضوع الهوية - الذاتية - من المواضيع التي ظهرت في الفكر العربي الإسلامي مع ظهور هاجس النهضة والإصلاح في المجتمعات العربية منذ قرابة القرنين من الزمن - وبالتحديد مع الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م - ويرجع السبب في ذلك إلى شعور المفكرين العرب بالخطر الذي يهدد هويتهم وحضارتهم وتاريخهم على يد " عدو قوي وخطير يُريد هذا ويعمل جاداً عليه مما ولد قناعة لدى نخبة من العلماء المصلحين بضرورة الانتباه لهذا الموضوع الخطير والتصدي له عبر السير في عملية تغيير وإصلاح للواقع السيء الذي تعيشه الأمة الإسلامية ، فكان هذان السببان : الشعور بالخطر والشعور بالحاجة إلى الإصلاح هما اللذان ولدا الاهتمام بموضوع الهوية لدى المفكرين الإصلاحيين ، هوية النهضة التي يرومون القيام بها في ذلك الوقت " (5)

إذاً الشعور بالخطر وهاجس الإصلاح والتغيير من أهم العوامل التي تحرك المجتمعات والامم نحو العودة إلى الذات والبحث عن الهوية الجامعة التي تتميز بها - ولها ومن اجلها - عن بقية المجتمعات والامم التي تعيش معها على ظهر الأرض .

والخلاصة أن الهوية - أو الذاتية - تعني بكل بساطة : من أنت في الحياة ، وماذا تُريد منها - فرداً أو جماعة ؟ - وتتأسس على الوعي بالخصوصية والتميز والتفرد والاختلاف عن الآخر المخالف لك في كل شي ، فميزات الفرد هي هويته التي تميزه عن غيره من الافراد وميزات المجتمع هي هويته المميزة له أيضاً .

الآخر المخالف في ظل الإسلام :

من المعلوم لكل ذي عقل أن الكون الفسيح قائم على دعمتين بينهما ارتباط وثيق وهما : قداسة الإله وكرامة الانسان ، فمن يقدر الله من الضروري أن يكرم الانسان ومن يكرم الانسان فهو بعمله هذا يقدر الله - علم ذلك ام لم يعلم - وبناء على ذلك فإن المنهج الذي جاء به الإسلام منهج إنساني صرف يتعامل مع الإنسان على أساس إنسانيته (أصل الخلق المشترك) فالإنسانية هي اللغة العالمية الواحدة التي تكلم بها الإسلام إلى جميع الناس لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه : (الحمد لله رب العالمين) وتعامل

بها مع بقية الرسالات السماوية، وهو ينظر الى أي نسان بأنه مكرم بأصل الخلق ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } {الاسراء:70} .

لأنه يحمل في داخله من روح الله وهذا يكفي ويزيد كي نبره ونكرمه ونحترمه . وكما قال الإمام علي - كرم الله وجهه - في رسالته إلى واليه على مصر مالك الاشر بأن أي انسان : " إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق " لقد بنى الاسلام العلاقة بغير المسلمين على أساس أن الاخوة التي تجمع بينهم والرابطة التي تربطهم بغيرهم من اصحاب الرسالات الاخرى قائمة على أصل الخلق المشترك ، باعتبارهم لآدم عليه السلام ، فالإسلام لا يفرق بين الناس على أساس العقيدة، بل هو يأمر بالتعامل الانساني مع المخالفين له على أساس من العدل الذي ينبغي أن يقوم ويسود بين جميع افراد الدولة الاسلامية ولا فرق بين المسلم وغير المسلم ، وكما قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } {النحل:90} .

فالإسلام يأمر المسلمين أن يتعاملوا مع بعضهم ومع غيرهم بالأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة والعشرة الطيبة والمشاركة بالمشاعر الإنسانية النبيلة التي تأمر بالبر والإحسان والرحمة لجميع الناس دون استثناء، وأمر الله المسلمين بالعدل والإنصاف من المسلم للآخر - ولو مع العدو - وليس هناك أي منهج بشري وضعي يأمر بذلك ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } {المائدة:8}

وفي آية أخرى يقول تعالى { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْبُدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } {المائدة:2} (6) .

هذا البناء الأخلاقي المحكم للتعامل مع الآخر المخالف سنّه الرسول الكريم - عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم - في بداية ظهور الدولة الإسلامية في المدينة المنورة عندما تعامل مع أصحاب الملل والنحل الأخرى باعتبارهم مواطنين وليسوا رعايا ، لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات تجاه الدولة الوليدة من خلال الوثيقة التي عقدها الرسول الكريم مع القبائل العربية الاثني عشر وقبائل اليهود العشر ، وتعتبر تلك الوثيقة بحق هي " أول دستور مكتوب في العالم " (7) .

وقد نظمت تلك الوثيقة العلاقة بين مختلف مواطني الدولة الناشئة من المسلمين وأهل الكتاب وبقايا مشركي المدينة ، ويمكن القول بثقة تامة بأن رسول الاسلام كان " قد انفرد من بين جميع الأنبياء بأن عقد أكبر وأعظم وثيقة سياسية لم يسبقه إليها نبي ولم تتجاوزها في روحها ودلالاتها أي وثيقة تاريخية معروفة الى اليوم " (8) .

وأهم شيء ركزت عليه الوثيقة المذكورة في بنودها المختلفة هو الولاء للدولة الإسلامية على أساس المواطنة المشتركة - وليس العقيدة المشتركة - ولا وحدة العنصر المشترك ، فليهود ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات ... ولهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم ... وهم ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين وبين اليهود والمسلمين النصر على من حارب أهل هذه الوثيقة و بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم (9) .

لقد عاش اليهود وبقايا مشركي المدينة في ظل وثيقة المدينة التي قررت المواطنة المتساوية للجميع - حقوقاً وواجبات - معصومين دماً ومالاً وعرضاً ، وفرضت عليهم واجبات - بحكم مواظنتهم الدائمة - تؤدي إلى إحقاق حقوقهم أولاً وتؤدي ثانياً إلى تحقيق التكافل مع الدولة والولاء لها لحفظ كيانها الداخلي .

وتحقق للآخر المخالف في ظل الدولة الإسلامية التأكيد والحرص من قبلها على ارساء مبدأ حرية العقيدة والتأكيد على مبدأ التسامح الذي شمل المسلمين وغيرهم بالحقوق والواجبات عينها - باعتبار المواطنة المتساوية - وليس اعدل ممن يساويك بنفسه في النصفة والعدل والحكم (10) .

لقد قبل الرسول الكريم - عن طيب خاطر - وجود اليهود وبقايا مشركي المدينة وعاهدهم معاهدة الند للند لهم دينهم وله دينه ولم يتجه إلى رسم سياسة الإبعاد والمصادرة للمخالفين ، بل رسم سياسته مع الآخر بالعدل والمساواة والتعاون (11) .

وقد كان الرسول في تعامله من أهل الكتاب من اليهود والنصارى معاملة الند للند والشريك للشريك - شراكة في الانسانية وشراكة في الوطن - وكان في تعامله وحواراته معهم يركز على نطاق الالتقاء بينهم ويتجنب الخوض في نقاط الاختلاف ، كما اخبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله : { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت 46.

لقد تعامل المسلمون مع غيرهم من مواطني الدولة الإسلامية على أساس الرابطة الوطنية التي تقوم على البر والقسط كما قال تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ

عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {الممتحنة:8}

وتلك الرابطة الوطنية والانسانية هي أعلى شأنًا وأقوى أثرًا في رعاية حقوق غير المسلمين وهي أضمن لحقوقهم من المواطنة المجردة ، قال ابن حزم : "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكرام والسلاح ونموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة "(12) .
لقد شدد الإسلام العقوبة على من يتعرض للذمي وللمعاهد بغير حق و أكد على ذلك قول الرسول الكريم : "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً" (رواه البخاري ، كتاب الجزية والموادعة) .

وعلى ضوء ذلك فإن الغاية النهائية التي تستهدفها رسالة الإسلام هي دفع الظلم عن الناس دون استثناء وإقامة العدل بينهم ، وعندما تحققت أهداف رسالة الإسلام كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس ومدحهم القرآن بذلك قائلاً : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} {آل عمران:110}

إن القيم الأخلاقية للمجتمع الإسلامي القائم على الأخوة بين المسلمين وعلى المعاملة الحسنة مع غير المسلمين قامت على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المسلمين ومع غيرهم على حد سواء (13) .

ومما يدل على أن مبدأ المواطنة عم الدولة الإسلامية ، أن الخليفة عمر بن الخطاب أجرى مالا من بيت مال المسلمين على رجل من أهل الذمة - باعتباره مواطناً - تبين للخليفة أنه فقير ، وقاضى الإمام علي - كرم الله وجهه - نفسه مع يهودي عندما ادعى الأخير ملكيته لدرع الإمام وجلسا معاً أمام القاضي باعتبارهما مواطنان ، الأول خليفة المسلمين والآخر أحد مواطني الدولة الإسلامية . فعلام يدل هذا التسامح مع الآخر ؟

إنه يدل على عالمية الإسلام وذلك لان الرسول الكريم هو الرحمة المهداة لعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةًً عَالَمِينَ} {الأنبياء:107}

فرسالة الإسلام " لا تخاطب المسلمين وحدهم بل تخاطب بني البشر حتى أن كلمة المسلم فيها تعبير عالمي فهي لا تدل على قومية أو عرق أو جنس أو لون أو منحدر اجتماعي أو طبقي أو اتجاه سياسي أو فكري " (14) .

إن حقيقة الإسلام المعبرة عنه وجوهره الأساسي الذي يفصله عن غيره من الرسالات السماوية هو التسامح مع الجميع والعدل بينهم على أساس المواطنة المتساوية وليس على أي أساس آخر إن " كلمتي التسامح والعدل

هما التعبير الدائم عن الجوهر الشامل الذي يستوعب أدق تفاصيل التشريع خاصة في مجال الدعوة إلى الإسلام " (15).

فلقد تعامل الإسلام مع الآخر في المدينة المنورة - اليهود وبقايا المشركين - على أساس التسامح المعبر عن روح الإسلام، فالتسامح وفق المنظور الإسلامي "فضيلة أخلاقية وضرورة مجتمعية وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها... وهو كسلوك وموقف ليس منةً أو دليل ضعف أو ميوعة في الالتزام بالقيم بل هي من مقتضيات القيم ومتطلبات الالتزام بالمبادئ... وعليه فإن التسامح الذي يقود إلى التعايش والاستقرار الاجتماعي وتطوير أواصر وأسباب التعاون بين مختلف أبناء وشرائح المجتمع هو من صميم القيم الإسلامية النبيلة " (16).

ولقد عبر المسلمون عن تسامحهم مع الآخر في العهد النبوي والخلافة الراشدة وممارستهم له في تعاملهم - قولاً وسلوكاً - وإرسائهم لقواعده الأساسية قبل أن تتحدث عنه القواميس الغربية وذلك من خلال وثيقة المدينة التي تضمنت نفس فكرة التسامح الحديثة القائمة باختصار على تقديم أفكار دون السعي لفرضها، كان سلوكهم مع الآخر المخالف لهم في العقيدة هو جوهر تعريف قاموس (لاروس) للمعنى الفلسفي للتسامح الذي يعني: "احترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وأراءه السياسية والدينية" (17). ويتجلى انفتاح الإسلام وتسامحه مع المخالفين له في العقيدة في قبوله وحمايته أفراداً وجماعات ومجتمعات غير إسلامية " فقد تقلد يهود ونصارى وأعضاء طوائف أخرى وظائف هامة في حكومات إسلامية عديدة وحظيت أديان مختلفة بكامل الحقوق والرعاية، وسمحت السلطات لغير المسلمين بممارسة شعائرهم دونما تضييق " (18).

وما هو بديهي أن هذا السلوك كان مستمداً من الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي كان تعامله مع المسلمين ومع غيرهم خير دليل على عظمة الإسلام وتسامي مبادئه وتسامحه مع الآخر قولاً وسلوكاً، فقد قدم على الرسول الكريم وفد من نجران ودخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، ف جاء وقت صلاة الوفد فقاموا يصلون في مسجد الرسول - وهم على غير ملة الإسلام - فأراد المسلمون منعهم فقال لهم النبي: دعوهم يصلون، فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم، وروى البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرت به جنازة فقام فقبل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أوليست نفساً (كتاب الجنائز).

على ما يدل ذلك؟ ان في اقوال الرسول وافعاله دلالات على تجذر الوعي بالآخر لأنه ليس بمستغرب من رسول آمن بما جاء به القرآن عن وحدة

الأصل الإنساني وعمل على تجسيد ذلك الإيمان في سلوكه المعاش ليُطابق بين ما يقول وبين ما يفعل - لا انفصام بينهما - الأمر الذي كان له الأثر الأكبر في دخول الناس في دين الله أفواجا .

كيف نتعرف على الآخر ؟ :

يجب ان نذهب الى الآخر المخالف لنا لننتعرف عليه ونعرّفه بنا ، لأن التعارف شرط من شروط الإنسانية ومن شروط الاستخلاف ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } الحجرات 13 .

فالحيوانات لا تتعارف ولذلك هي تتصارع وتتعارك ويأكل القوي منها الضعيف من أجل ذلك هي كذلك ، اما الإنسان فهو بحكم انسانيته مأمور بان يتعرّف على بني جنسه وان يُقيم جسور المؤدة والألفة بينهم البين من خلال التعايش والحوار الذي يسمح لهم ان يعرفوا بعضهم البعض عن قرب ، واذا اراد الإنسان أن يتعرف على الآخر معرفة مباشرة صحيحة عليه ان يلتزم بالخطوات الآتية :

1 - المعرفة المباشرة : من خلال سماع ما يقوله الآخر بنفسه أو ما يكتبه بقلمه وليس ما ينقل عنه ، وما يُكتب عنه - من خلال الصحف والاذاعات ، ومحطات التلفزة ووسائل النقل الالكتروني - لأن الناقل - اذا كان خصماً - فهو غير أمين وغير نزيه وليس محايداً في نقل افكار الآخر ، او ربما - اذا لم يكن خصماً - في أحسن الاحوال قد يكون نقله ناقصاً او مشوّهاً او محرّفاً او ربما تكون مصادره غير موثوقة واستنتاجاته غير صحيحة .

2 - اذا اراد الإنسان أن يكون موضوعياً - وليس ذاتياً - في معرفته للآخر فعليه بأن يوطن نفسه بان تكون معرفته تلك غرضها المعرفة وليس تتبع العيوب والعثرات ونقاط الضعف .

ونعني بالموضوعية ايضاً : أن تكون القراءة هادفة لمعرفة الآخر كما هو على حقيقته دون ميل أو انحياز مسبق يجعل بصر القارئ زائفاً وتعني كذلك عدم اساءة التفسير لرأي الآخر وعمله مادام يحتمل وجهاً للصحة ، لأن البعض يقرأ الآخرين متبرعاً بالتعبير عن نواياهم ومقاصدهم فيشكك في الصحيح من أقوالهم والظاهر من معاني أقوالهم بأن لذلك معانٍ واهدافاً أخرى (19) .

يجب عليك أن تتوجه لمعرفة الآخر وعقلك عبارة عن صفحة بيضاء نقية غير ملوثة بأفكار مسبقة قد تشوّه الافكار الصحيحة التي يمكن أن تعرفها عنه ، يجب ان تقارن نفسك بكأس مملوءة وتحاول ان تملئها مرة اخرى ، لن تستطيع لأن فيها ما يمنعها عن استقبال المزيد ، وهذا هو حال من يُريد ان

يعرف الآخر وعقله معبأ ومملوء بأفكار مسبقة عنه ، لا يستطيع لأن الافكار المسبقة تمنع وتزاحم الافكار الجديدة التي تحاول الدخول .
لقد شبه الفيلسوف ديكارت (1596 - 1650م) تلك الافكار المسبقة التي تحتل عقل الإنسان بالفتح الفاسد ، وقال : اذا كانت لدا شخص ما سلة مليئة بالفتح الجيد والفساد فماذا يفعل كي يطهر سلته (عقله) من الفساد ؟ ويمنع انتقاله الى الفتح الجيد ؟ ان الطريقة السليمة هي ان يفرغ سلته من جميع الفتح ، ثم يفحص الفتح واحدة تلو الاخرى ليضع الفتح السليم داخل السلة ويضع الفاسد خارجها . هذا بالضبط ما نحتاجه في معارفنا المتنوعة ، لان المعرفة الخاطئة الفاسدة يمكن ان تفسد جميع المعارف السليمة في عقولنا كما تفعل الفحاحة الفاسدة التي تنقل الفساد الى باقي الفتح السليم .

3 - ومن شروط الموضوعية في معرفة الآخر الابتعاد عن التعميم ، بمعنى : اذا صدر من شخص - يمثل حزبا او ديناً او مذهباً او منطقة - خطأ في القول او الفعل فلا يجب ان نعمم ونقول ان الحزب الفلاني او الدين او المذهب العلاني او المنطقة الفلانية يتسم بنفس الصفة ، فالتعميم خطأ فادح يقدح بكل تفكير موضوعي ويخرجه عن جادة الصواب ، ولقد نبه القرآن الكريم على خطورة التعميم باعتباره منافيا للموضوعية وللتفكير السليم في اكثر من آية ، يقول تعالى : { لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } آل عمران 113
ويقول كذلك : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا } آل عمران 75
ويقول ايضا : { وَلَوْ أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } آل عمران 110 .

4 - من شروط الموضوعية ان يدرك الإنسان بان كل مخلوق لا يخلو من العيوب - وكذلك الافكار والقوانين الوضعية - باعتبار ان المخلوق يتصف بالنقص ، بخلاف الخالق لوحده هو الكامل الذي يخلو من العيوب ومن النقص ، وكما قال الشاعر العربي :

اذا انت لم تشرب مراراً من القذى *** ظمئت واي الناس تصفو مشاربه .
ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها *** كفى المرء نبلاً ان تُعد معايه
فاذا وجدت عيوباً عند الآخر يجب أن نتذكر عيوبنا ، بعدها سوف ندرك ان تلك العيوب يجب ان لا تكون عائقاً للتعرّف عليه ومحاورته ، ولنتذكر أن هناك مزايا تقابل تلك العيوب ، وبالتالي فإن العيب لا ينفي المزية ولا ينتقص منها ، قس على ذلك الاحزاب والمذاهب ، هناك عيوب وهناك مميزات ، فاذا ذكرت العيب يجب عليك - دينياً وأخلاقياً - ان تذكر المزايا

حتى اذا اختلفت مع الآخر وكرهته يجب ان تذكر وتتعترف بمحاسنه ، لأن ذلك من العدل الذي يحث عليه القرآن كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } المائدة: 8 .
بهذه الأفكار تبنى الأوطان ويتعايش فيها الجميع وبغيرها يعم الخراب والد مار والله من وراء القصد .

كيف نتعايش مع الآخر في الوقت الحاضر:

يمكن ذلك متى ما أمانا بأهمية التنوع والاختلاف وسلوك طريق الحوار البناء القائم على الاحترام المتبادل باعتباره مظلة تسع الجميع وتردم الهوة وتقرب البعيد ، وكذلك من خلال الاستفادة من تجارب الشعوب المتعايشة برغم اختلافها الظاهر في الكثير من الأشياء المختلفة ، لكن الحوار- القائم على القبول بالآخر كأمر واقع - هو ما يجمعهم .

فإذا كان الله تعالى يخبرنا أن ندعو الى دينه بالحكمة التي تقوم على العقل والمنطق والحجة والبرهان وهي تعني : استخدام أرقى الطرق في الوصول الى عقول الناس وقلوبهم ، والبعيدة عن التهديد والوعيد والوعيد ، بل يجب ان يكون القول ليناً سهلاً بوجوه مبتسمة ، واصوات منخفضة ، كما قال تعالى عندما ارسل موسى وهارون الى فرعون الطاغية : { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه: 44 .

وان لا تحمل الدعوة الى الله نبرة استعلاء وتكبر وغرور ، مصداقاً لقوله تعالى : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } النحل: 125 .
في الآية السابقة يدعونا الله ان نستخدم الموعظة الحسنة عندما ندعو اليه ، ولكنه يأمرنا ان نجادل الناس - عندما نتحاور معهم - بالتي هي أحسن - وليس بالتي هي اخشن كما يفعل البعض -

ومن اساليب الحوار بالتي هي احسن :

- اولاً : الاتفاق على اطار مرجعي شامل يضم جميع المتحاورين تحت رايته " لأن العقل البشري يصعب عليه أن يعمل بدون إطار مرجعي يمنحه شيئاً من الثوابت والأسس الصارمة " (20) .

ومن الامثلة على ذلك : 1 - عبادة الله وحده دون شريك هي الاطار المرجعي للتحاور بين أصحاب الرسالات السماوية المختلفة ، على أساس ان الشرك هو ظلم عظيم ، لا يغفره تعالى ويغفر ما دونه كما قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ

فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا { النساء 48 . { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء 116 ،

واشترط سبحانه على معتنقي جميع الرسالات السماوية ثلاثة شروط هي :
الايمان به وحده دون شريك في قول او عمل ، والايمان باليوم الآخر
باعتباره يوم الجزاء والحساب ، والعمل الصالح الذي أمر به من خلال
تحليل الحلال وتحريم الحرام ، مصداق ذلك ما قاله سبحانه وتعالى : { إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
{ البقرة 62 . وقوله كذلك في آية اخرى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } المائدة 69 .

ويمكن الاستشهاد على صدق ما نقول بالآية 29 من سورة التوبة التي أمر
الله فيها بقتال من لا يؤمن به ولا باليوم الآخر ولا يعمل صالحاً من خلال
إحلال الحلال وتحريم الحرام كما قال تعالى : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } .

2 - الاسلام هو الاطار المرجعي للتعاور بين الفرق والمذاهب الاسلامية
المختلفة، وهو الذي يجمع بين السنة والشيعه والاسماعيلية والاباضية
والدروز وغيرها من مختلف الفرق والطوائف الإسلامية ، و في إطار
الحوار الجميع مسلمون يؤمنون بالله رباً و بالإسلام ديناً و بمحمد - صلى
الله عليه وعلى آله - نبياً . ولا يجوز اخراج أي فرقة من تلك الفرق من
دائرة الاسلام ، لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة : الكف عمّن قال لا إله
الأ الله ، فلا تكفره بذنوب ، ولا نخرجه من الاسلام بعمل .

ويجب ان يكون معلوماً في حال تخاصم المسلمون واختلافهم في مسائل
الخلافة الفرعية او في اطار السياسة ، ان نتذكر دائماً وابدأ قوله تعالى :
{ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } القلم 35-36 .

فيجب أن لا ننسى اننا نتخاصم ونختلف في اطار الدائرة الاسلامية التي
تجعل السلام من الدين الاسلامي بمثابة المركز الذي يعطي للدائرة الشكل
الذي هي عليه، أي: أن السلام هو جوهر الاسلام وماهيته التي تميزه عن
غيره، فالمسلم هو الذي يعيش الاسلام فكراً وسلوكاً ، وهو الذي ينشره بين
الناس حتى في حال الاختلاف والخصومة يجب أن يسود السلام والمسالمة
والامن ، وعكسه تماماً هو الاجرام الذي ينشر الرعب والفرع والخوف

، فعندما نخاف ان نحاور فرقة او مذهباً معيناً فذلك يعني انها بعيدة عن مركز دائرة الاسلام .

ولنتذكر ايضا قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ^{الفتح 29} .

فمن صفات اتباع النبي الكريم انهم اشداء على الكفار- الذي ينكرون وجود الله مطلقاً- ويجب ان يتراحموا بينهم حال اختلافهم وخصومتهم لانهم مسلمون مسالمون ، ومن يعامل المسلم بقسوة و عنف و يحاربه - لأي سبب من الاسباب دون الدفاع عن النفس - فهو لا شك ليس من اتباع النبي الكريم وانما من اتباع الهوى والشيطان والحزب والمذهب .

ويؤكد ما ذهبنا اليه قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} ^{المائدة 54} . بمعنى أن : من يرتد عن دينه ويوالي اليهود والنصارى ويعاملهم

باعتبارهم اقرب اليه من المسلمين ،فإن الله تعالى سوف يأتي بمؤمنين - ينفذون او امره التي هي مبادئ الايمان يوالون المسلمين ويعادون اليهود والنصارى - يحبونه ويحبهم وذلك لانهم لا يظهرون العنف والقسوة والجلافة والغلظة مع المؤمن تحت أي ظرف ، لكنهم يظهرون العزة على الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا بمبادئ الاسلام .والدليل على ما قلناه اولاً :

ان الآية التي ذكرناها وردت في سياق التحذير من مولاة اليهود والنصارى وهي قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ^{المائدة 51} .

وثانياً : ان الواقع السياسي المعاش يظهر لنا تحالف بعض الدول العربية والاسلامية مع اليهود (اسرائيل) والنصارى (امريكا واوروبا) لمحاربة بعض الدول الاسلامية ،بل ان البعض يعتبر ان بعض الدول الاسلامية هي العدو وهي اشد خطراً على الاسلام والمسلمين من اسرائيل ،مع ان الله سبحانه قد قال : {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا} ^{النساء 45 - 46} .

أي : انه تعالى يعلم وحده من هو العدو للمسلمين ،وهو الولي وحده دون سواه وهو الناصر ، ومن اعدائكم : اليهود الذي حرفوا ما قاله تعالى اكثر من مرة ومن يواليهم يصبح مثلهم ويحرف كلام الله كما حرفوه ، فالله قد قال : {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} ^{المائدة 82} . أي أن هناك أعداءً للمؤمنين ، لكن أشدهم عداوة لهم هم اليهود والذين اشركوا بحسب منطوق الآية القرآنية .

وبعض الفرق الاسلامية وبعض المذاهب التكفيرية وبعض ادعاء الدين يحذرون من خطر المسلم على اخيه المسلم اكثر من تحذيرهم من خطر اليهود وبعض النصارى ، فمن صدق عزيزي الطالب النبويه : ما قاله الله ام ما يتقوله بعض مشايخ الفتن بين المسلمين ؟

وقد نشأ عن مولاة الكفار واليهود العنف بين المسلمين بعضهم البعض ، والعنف المقصود قد يكون مادياً بالإيذاء الجسدي والاعتداء بالضرب او القتل ، وقد يكون معنوياً : بالسب والشتم واللعن والتكفير والتفسيق والتبديع ، ومن الاحاديث المتفق عليها في البخاري ومسلم : من رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله . وفي صحيح مسلم: « إِذَا كَفَرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا » .

3 - ومن الامثلة على الاطار المرجعي للتحاور بين الاحزاب هو: الوطن - ومصالحته وسيادته - فهو الاطار المرجعي الذي يجمع بين الاحزاب في السلطة او في المعارضة ، وسيادته مقدسة ومصالحته محترمة ومقدمة على جميع الاحزاب . وليعلم الجميع انه اذا لم يجمعك مع الآخر وحدة الدين (اسلام ، رسالة موسى ، رسالة عيسى ، صابئة ، رسالات اخرى توحد الله) ، او وحدة المذهب أو الطائفة (شافعي ، مالكي ، حنبلي مثلاً ، أو سنة وشيعة في اطار الاسلام) او وحدة اللغة والمواطنة في اطار الوطن الواحد ، فتذكر وحدة الجنس الإنساني الواحد المكرم من قبل الله ، فالإنسانية هي الحزب الواسع الذي يجمع الناس المختلفين في كل شيء وهي اللغة التي يتكلم بها الجميع والديانة التي يجب ان تجمع كل الناس ، والوطن الذي يضم في اطاره كل المختلفين ، كما قال الإمام علي - كرم الله وجهه - في رسالته لمالك الأشتر : الناس صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

ثانياً : استخدام أرق الالفاظ وارقي التعبيرات التي يحبها الخصم في الحوار ، كما كان يفعل الرسول الكريم في حوارهِ مع اليهود والنصارى ، كان يناديهم بما يحبون أن يناديهم به الناس وهو لفظ اهل الكتاب لانهم يرون فيه تميزاً لهم عن غيرهم من الامم - وخصوصاً العرب - الاميين الذين لا كتاب لهم قبل نزول القرآن ، كما يقول تعالى : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 64 .

ثالثاً : التركيز في الحوار على مواقع الاتفاق والالتقاء بينك وبين الآخر ، وتجنب نقاط الافتراق والاختلاف ، كما كان يفعل قذوتنا - عليه وعلى آله افضل السلام واتم التسليم - في حوارهِ مع الآخر ، كان يركز على نقاط الالتقاء بين المسلمين واصحاب الكتاب وهو ان إله المسلمون واليهود

والنصارى واحد هو الله سبحانه وتعالى : { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَالْهَؤُلَاءِ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت 46

وكما قال مؤسس حركة الاخوان المسلمين حسن البناء : لتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه .

4 - عدم الاعتقاد أو القول بالأفضلية أو الخيرية - انا خير منه - او ادعاء امتلاك الحقيقة ، لان ذلك سوف يؤدي الى تضخم الانا وتقيح الذات وظهور منهج ابليس الذي يقول انه خير من الجميع ، ولأنه يخالف ما امر به من عدم تزكية النفس كما قال تعالى : { وَلَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } . وهناك قصتان تكرر ذكرهما في معظم السور القرآنية ، نقرأهما باستمرار ونمر عليهما مرور الكرام دون تدبر أو تفكير في مغزى تكرار ذكرهما وهما : قصة إبليس عندما أمره الله بالسجود لأدم { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } { الأعراف:12} . وقصة فرعون { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } { غافر:29} .

ومغزى ودلالة الآيتين واضح - لمن كان له عقل يفكر وقلب يعي ويتدبر - لان القران جاء ليخاطب أصحاب العقول (أولوا الألباب) ، لقد أراد الله سبحانه وتعالى بإيراده قصة إبليس وفرعون في أكثر من آية قرآنية أن يوصل لنا فكرة ومعنى لها أهمية كبيرة في حياتنا الدينية والفكرية وهو: أن كل إنسان (أو كل فكر أو دين أو حزب أو مذهب أو طائفة أو قبيلة أو منطقة) يرى ويعتقد أنه خير من الآخر - المخالف له جنساً ولوناً وديناً ومذهباً وعرقاً ومنطقة وطائفة - لأي سبب من الأسباب الداعية للقول (أنا خيرٌ منه) فهو إبليس تجوز عليه اللعنة إلى يوم الدين ، وعندما يعتقد الإنسان - أو الفكر أو الدين أو الحزب أو المذهب - انه خير من الآخر فإنه يسعى تبعاً لذلك الاعتقاد أن يفرض آراءه ومعتقداته على الآخرين قائلاً(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) وهو بالتأكيد فرعون لأنه حاول فرض آرائه المغلوطة على الآخرين باعتباره إليها بزعمه، وبالتالي تجوز عليه اللعنة لان الله لعن الظالمين في أكثر من آية . بل على كل طرف ان يعرف ويؤمن بانه يقف على قدم المساواة مع الآخر وعلى مسافة واحدة من الهدى او الضلال ، كما كان يفعل سيد الاولين والآخرين في حوارهم مع اليهود في المدينة ، كما اخبر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } سبأ²⁴ . بمعنى ان الرسول الكريم لم يكن يجزم ويقول : انا خير

منهم والاسلام احسن من اليهودية والمسيحية ، ولم يكن يقول انه على الحق - مع انه كذلك - والآخر على الباطل بل كان يقول : ربما نكون سوية - مسلمون ويهود - على هدى أو نكون في ضلال مبين ، وهذا اسلوب راق في الحوار مع الآخر، و لو طبقه المسلمون في حواراتهم لاختلفت جميع المشاكل العالقة بين بعضهم البعض (سنة وشيعة) وبينهم وبين أتباع بقية الرسالات السماوية من يهود ونصارى - من غير المحاربين والمحرضين على العداوة - وأتباع الديانات الوضعية كالبوديين والهندوس.

بل أن الرسول - عليه وعلى آله افضل الصلاة و اتم التسليم - كان ينسب الاجرام الى نفسه ولدينه - حاشاه - وينسب العمل الى الآخر مراعاة واحتراما له ويقول لهم ان الله وحده هو من يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل ومن منا المخطئ ومن منا المصيب ، وهو من سيحكم بذلك في يوم الحساب ، كما قال تعالى : {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ } سبأ 26 - 25 . وذلك لعمرى اسلوب راق في التعايش مع الآخر وفي الحوار معه جعلت من الرسول الكريم اعظم شخصية في تاريخ الإنسانية ، فهو الإنسان الكامل - كما يقول عنه متصوفة الاسلام - وكما وضعه وليم هارت مؤلف كتاب العظماء مائة وجاء في المرتبة الاولى .

وتذكر عزيزي الطالب ان لا تتعالى ولا تتكبر على أي كان ، ولا تغتر بمذهبك وطائفتك وقبيلتك ومنطقتك وحزبك وبشهادتك كذلك ، بل عليك ان تجتهد وتعمل الخير لمصلحة كل بني الإنسان، وكل كائن حي ، لأنه تعالى قد حذر الجميع قائلاً : {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } النساء 123 .

وتذكر أخي الطالب : اذا لم يجمعك مع الآخر إله واحد او دين واحد او وطن واحد ، او عرق واحد او ثقافة واحدة، تذكر ان الإنسانية هي اللغة المشتركة بينك وبينه وانه إنسان وانت إنسان - تسري داخل كل منكما روح إلهية واحدة - فيجب ان يسود الود والتألف والاحترام ، لأن كل إنسان منكما مكرم بأصل الخلق وليس بشيء آخر كما اسلفنا .

قائمة المراجع :

- (1) ينظر : حسن الصفار : الحوار والانفتاح على الآخر . دار الهادي ، بيروت . ط1 / 1425 هـ - 2004 م . ص18.
- (2) حسن الصفار : كيف نقرأ الآخر . الدار العربية للعلوم ، بيروت . ط1 / 1425 هـ - 2004 م . ص19.
- (3) محمد عماره : مخاطر العولمة الثقافية . ص6 . سابق .
- (4) هارلميس وهولبورون : سوسيولوجيا الثقافة والهوية . تر: حاتم حميد محسن . دار كيوان ، دمشق . ط1/2010م . ص93
- (5) خليل نوري العاني : الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية . ديوان الوقف السني . العراق . ط1 / 2009 م . ص15
- (6) ينظر : احمد الرسيوني وآخرون . حقوق الإنسان محور مقاصد الشريعة ، كتاب لأمة ، قطر . العدد(87) ابريل /2002م، ص92-93.
- (7) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص154، مرجع سابق.
- (8) احمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة، المضمون والدلالة، الأمة، قطر، العدد (110) ذو القعدة /1426هـ، ص54.
- (9) ينظر: المرجع السابق ، ص 43-44-45 ، وأيضا المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص180، مرجع سابق .
- (10) ينظر : المرجع السابق، ص68-69، وأيضا، يسري محمد ارشد ، حقوق الإنسان في ضوء الحديث ، ص64، مرجع سابق .
- (11) ينظر : محمد الغزالي : فقه السيرة النبوية ، ص196-199 ، مرجع سابق .
- (12) نقلاً عن : محمد مفتي وسامي الوكيل ، النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان، كتاب ، الأمة ، قطر (25) شوال /1410هـ، ص123.
- (13) ينظر : محمد أسد : منهاج الحكم في الإسلام، تر : منصور محمد ماضي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1/1957م، ص72.
- (14) عبد الحميد شعبان : الإسلام وحقوق الإنسان ، فصلية أبواب ، دار الساقى ، بيروت ، العدد (26) خريف /2000م، ص59.
- (15) محمد البشاري : التسامح الإسلامي بين الحقيقة والافتراء ، فصلية الكلمة ، بيروت ، عدد(54) شتاء /2007م، ص94.
- (16) محمد محفوظ : مفهوم التسامح وقضايا العيش المشترك ، المرجع السابق ، ص123-124.
- (17) ذاكر آل حبيب : التسامح كنظام معرفي ، المرجع السابق ، ص9.
- (18) روجيه جارودي: لماذا اسلمت ؟ دراسة اعدھا محمد عثمان الخشت . مكتبة القرآن ، القاهرة (د - ت) . ص73.
- (19) حسن الصفار : كيف نقرأ الآخر . ص39. سابق .
- (20) عبدالكريم بكار : مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي . در القلم، دمشق . (د - ت) ص 74.

الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي

مقدمة :

أراد الله سبحانه وتعالى لدينه الحنيف أن يكون عالمياً لجميع خلقه - في كل عصر ومصر- وأن يكون خالداً ، تحكم شريعته الأفراد والمجتمعات الإنسانية ، صالحاً ومصالحاً لكل الناس في أي مكان وزمان وكان من الضروري أن تحمل مضامين الدين وخصائمه مؤهلات خلوده وصلاحيه شريعته ومن أجل ذلك جمعت الشريعة الإسلامية الغراء في داخلها بين الثبات والتغير " وهذه الخاصية واحدة من مظاهر الإعجاز التشريعي الذي لا يمكن أن يتوافر إلا للشريعة الإسلامية لأنها ربانية موحى بها من عند الله الذي خلق الخلق وهو حكيم خبير ، مُحيط عليم بفطرتهم وطباعهم وما يلائمها " (1) .

فالإسلام يوازن منذ ظهوره بين الثابت الباقي من أحكامه والمتغير منها - بتغير الزمان واختلاف المكان - بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، فيتحول الثابت إلى مجرد أفكار جامدة ويتحول المتغير إلى انفلات تشريعي غير محمود العواقب، ويجعل الإسلام الثابت العقائدي والقيمي والاخلاقي هو الأساس ويضع القواعد الثابتة له ويجعل التغير التشريعي المعاملاتي تابعاً ومحكوماً بها ولها، ويظهر هذا في العديد من آيات القرآن الكريم . إن جدل الثابت والمتغير موجود في كل فكر وثقافة وحضارة وتراث ودين وليس في الفكر الإسلامي وحده ، لأن ذلك الجدل يُعبر عن العلاقة بين القديم والجديد ، بين الماضي والحاضر ، بين الأصالة والمعاصرة ، بين النقل والأبداع ، بين التقدم والتأخر ، بين الثبات والحركة في تاريخ الأمم والشعوب ، لا غنى لأحدهما عن الآخر و يقوم ذلك الجدل أيضا على التكامل وليس الأقصاء وعلى التبادل وليس الاستبعاد ، هما لفظان متضايقان لغوياً لا يفهم أحدهما إلا بالآخر ، كلفظ الأب والأبن والحاكم والمحكوم ومثل الجوهر والعرض والقديم والحادث والواجب والممكن والكم والكيف والثابت والمتحرك والنفس والبدن - لدى الفلاسفة - كلاهما صحيح ، ليس أحدهما صواب والآخر خطأ وكلاهما ضروري لوجود الآخر لأنه يتضمنه (2) .

ولا شك أن الثابت كان وما يزال من خصائص الإسلام، التي تميز بها على سائر الشرائع و الملل والنحل ولا شك أن تحديد الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية لم يكن سابقاً من القضايا والأمور الشائكة في تراثنا الإسلامي العريق، كما أصبح عليه الحال في أيامنا هذه.

وقد ظهرت مقولات الثبات والتغيير في الفكر الإسلامي منذ بواكيره الاولى والسبب فيها يرجع لأن النص الديني والتشريعات الإسلامية محدودة متناهية ومشاكل الواقع ومستجداته متجددة باستمرار وغير متناهية وتلك واحدة من أهم " الحجج على عدم كفاية النص الديني لإصدار الاحكام لمستجدات الوقائع هي تلك التي تقول بأن النص متناهٍ محدود ، فكيف يستطيع استيعاب المتجدد اللامتناهي ؟ الا يعني ذلك أن نقبل شمول المحدود للمحدود واستغراقه له " (3)

لقد رأى بعض الفقهاء في تناهي النص القرآني ومحدودية التشريعات الإسلامية مبرراً للأخذ بمصادر أخرى رديفة لاستنباط الاحكام لبعض النوازل المستجدة في حياة المسلمين كالاتجاه والقياس والمصالح المرسلة وفقه سد الذرائع ، وقد اشار الشهرستاني (479- 548هـ) إلى ذلك بقوله : " نعلم قطعاً و يقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ونعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً والنصوص وإذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وما لا يتناهي لا يضبطه ما يتناهي ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد " (4)

وقد اشار العلامة ابن خلدون (ت 808هـ) إلى ذلك بقوله : " وأيضاً الوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص وما كان غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما " (5)

وكان يقصد بذلك الأخذ بالقياس كمصدر من مصادر التشريع . ما سبق يعني أن مسألة الثبات والتغيير في الفكر الديني قد شغلت الفقهاء منذ القرون الأولى وحاولوا أن يجدوا لها حلاً من خلال القياس والاجتهاد والمصالح المرسلة وظلت تلك المسألة تؤرق بال الفكر الإسلامي حتى اليوم

معنى الثابت والمتغير لغة :

الثابت في اللغة: اسم فاعل من ثبت الشيء ثباتاً وثبوتاً فهو ثابت وثبتت، وثبت، ويقال: ثبت - محرك - على العدل الضابط وقد يسكن ويقال ثبت - بالتسكين - على الكتاب الذي يذكره فيه الأسانيد، والجمع لهما الأثبات . والثبات فيه معنى الديمومة والاستمرار والملازمة والبقاء زمانين، وفي القرآن: (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) (ابراهيم - 24) و(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) (ابراهيم - 27) وفيه (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (الرعد 29) وفيه (مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من

أنفسهم كمثل جنة بربوة) (البقرة - 265) وفيه (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتاً) (النساء - 66).

معنى الثابت اصطلاحاً :

يُقصد به العناصر أو الأشياء أو التشريعات التي لا تتبدّل ولا تتغير مع الزمن وتتصف بالاستقرار والديمومة المطلقة " الأمر الذي حدا بكثير من المتقنين أن يطلق عليها : الثابت ، المطلق ، المقدّس ، الحقيقة " (6).

فالثابت هو مقصد الدين أو الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل في كل زمان ومكان كما قال تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } [الحديد : 25].

فإقامة العدل وتحقيق العدالة بين الناس مقصد ثابت وهدف وغاية جاء الرسل لتحقيقها على أرض الواقع - في كل زمان ومكان - وهي تحتاج لوسائل للوصول إليها ، وهي المقصود بأرسال الرسل بشريعة سماوية ، فالهدف - مقصد الدين - ثابت والوسائل - الشريعة - متغيرة بتغير الزمان والمكان . وقد أطلق الفقهاء على الثابت اسم الاجماع مرة والمعلوم من الدين بالضرورة مرة أخرى لأنه يظهر بصورة واحدة لدى جميع المسلمين في كل مكان وزمان، وهناك اتفاق بينهم على ذلك (ويسميه الشافعي: إجماع العامة) ومثال ذلك : الاجماع على وجوب الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان - وليس شهراً آخر - وأن الوضوء شرط للصلاة ويأتي قبلها (وليس بعدها كما يمكن أن يوصل إليه التحليل اللغوي للآية) وأن البيع حلال والزواج حلال ووجود أحكام للإيلاء، والظهار والطلاق والقصاص والحدود وعلى حرمة السرقة والزنا والربا والقتل والعدوان وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة وهي الاحكام التي وصلت اليها بدليل قطعي لا يقبل التغيير والتبديل ، فهي عناصر ثابتة في الشرع لورودها في الصحيح القطعي. أما إجماع الخاصة - وهم الفقهاء المجتهدون - فقد وقع الخلاف في إمكانية وقوعه، ثم في صحته، ثم في نوع المقبول منه : هل هو إجماع الصحابة أو إجماع أهل البيت - عليهم السلام - أو إجماع الفقهاء المصريين أو فقهاء الحرمين، من أجل ذلك قال الأمام احمد: (من ادعى الإجماع فقد كذب)! وعلى ذلك فهو متردد بين الثابت والمتغير تبعاً للناظر فيه، فمن صدق بأنه إجماع جعله من الثابت، وإن أنكر أنه كذلك جعله من المتغير وهي الاحكام التي وردت اليها بدليل ظني واختلف فيها الفقهاء ، فهي ليست من الثوابت في الشريعة وإنما من الاحكام المتغيرة التي تتغير بتغير الزمان والمكان واختلف فتاوى الفقهاء.

وهناك من يرى أن الثابت هي مقاصد الشريعة " الضروريات الخمس : الحياة (النفس) ، العقل (العلم) الدين (المعيار الثابت) والعرض (الكرامة الفردية والجماعية) والمال (الثروة الوطنية) والمتغيرات هي الحاجيات والتحسينيات طبقاً لظروف كل عصر " (7) .

معنى المتغير لغة:

اسم فاعل من تغير الخماسي، ومعناه تحول، ويقال: غيره إذا جعله غير ما كان وحوله، وبدله، وفي التنزيل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). (الرعد - 11). وفيه (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). (الانفال - 53).

وهذا يعني أن التغيير فيه تبديل وتحويل للشئ المغير يسلبه صفة الثبات التي كان عليها .

معنى المتغير اصطلاحاً :

يُقصد به العناصر أو الأشياء أو التشريعات التي تتبدل و تتغير مع الزمن ، فقد تصلح لزمن معين لكن ذلك لا يعطيها سمة الاستمرار والصلاح لكل زمن ولذلك " اطلق عليها :المتحول ،المتغير ،المتحرك ، النسبي ، المدّس ، النظرية " (8) .

والثابت والمتغير اصطلاحان حديثان ظهرا في كلام فقهاء الشريعة آخذين به من قبل الأدباء، حيث تكلموا في الأدب عن الثابت والمتحول، وعبر بعضهم عن ذلك بالثابت والمتغير، وتوسع آخرون - في ظل اضطراب المصطلحات في عصرنا - إلى التعبير عن ذلك بمصطلح الأصالة والمعاصرة أو بالقديم والحديث أو بالتراث والحداثة ، والمطلق والنسبي وكل من هذه المصطلحات الثنائية وضعت بإزاء معانٍ مختلفة، بينهما فوارق شتى وكل مصطلح منها يعني عكس المصطلح المقابل له تماماً ، وغدا لكل مصطلح منها فريق من المؤيدين والمعارضين .

ومن الملاحظ أن الفكر الإسلامي يعيش في عصر الميل فيه للتقليد والثابت على حساب المتغير ويعاني من " سيطرة القديم على الجديد والماضي على الحاضر والنقل على الابداع والتقليد على الاجتهاد ومن الضروري عدل الميزان من الكفة الراجحة إلى الكفة المرجوحة ، من الثوابت إلى المتغيرات من القديم إلى الجديد من الماضي إلى الحاضر من النقل إلى الابداع من التقليد إلى الاجتهاد من العقيدة إلى الثورة من النص إلى الواقع من الفناء إلى البقاء ومن النقل على العقل " (9) .

وبعد إن تعرّفنا على المعنيين اللغوي والاصطلاحي ، حريُّ بنا أن نتعرفَ على ما نقصده بالثابت والمتغير في الفكر الإسلامي .

المقصود بالثابت والمتغير :

يمكن القول أن الثوابت في الدين السماوي الواحد الذي بعث الله به جميع الأنبياء من لدن آدم إلى النبي محمد - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - تتمثل في العقيدة والحكمة - بمعناها القرآني المذكور في سورتي الأنعام والإسراء - والقيم والمبادئ والأخلاق ، أما المتغيرات فهي الشرائع في الدين السماوي الواحد - بحسب المفهوم القرآني - والتي كانت المجال الحقيقي للنسخ - والمقصود به نسخ الآيات التكوينية أو معجزات الانبياء بحسب الدراسات الحديثة فيه - فهناك أمور علم الله تعالى منذ الازل أنها تناسب جميع خلقه منذ أنزل وحيه وإلى أن تقوم الساعة و" لا يختلف فيها أهل عصر عن آخر ولا أصحاب مكان عما سواه فشرع الله تعالى بشأنها أحكاماً اقتضت حكمته سبحانه أن تكون ثابتة وأن تظل كما هي نصاً وروحاً ، شكلاً ومضموناً مظهراً وجوهراً ، مهما تغير الزمان وتطورت البشرية وسواء أتقدمت أم تأخرت "(10)

و معلوم من الدين بالضرورة أن الثابت في الإسلام هو مجموعة الأسس والحقائق التي لا بد من ثباتها، بما تشمله من أصول العقيدة وأركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة وما يتعلق بالله سبحانه من توحيده وإثبات أسمائه وصفاته وأفعاله، وإفراده بالألوهية والربوبية والحاكمية والعبادة، وأصول العبادات والمعاملات، ومكارم الأخلاق، وأن الإسلام بمفهومه القرآني العام هو وحده الدين المقبول عند الله سبحانه، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {آل عمران: 19} وغيرها من أصول الإسلام التي يصعب حصرها، والتي منها وجوب الالتزام بأحكام الله تعالى وتشريعاته وعدم جواز إقرار أي تشريع يخالف تشريعه سبحانه وتعالى .

ولعل من أبرز المجالات الثابتة في الأحكام الشرعية: أن المصادر الأصلية للتشريع الإسلامي المتفق عليها محصورة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة - الموافقة له - و مقاصد الشريعة و القواعد الفقهية الكبرى التي تنظم حياة الناس وتحقق لهم الخير، والتي منها على سبيل المثال : (لا ضرر ولا ضرار) و القواعد الكلية أيضا التي تضبط أحكام الشريعة والاستنباط منها مثلا : الأمور بمقاصدها، المشقة تجلب التيسير، لا ضرر ولا ضرار، الضرورات تبيح المحظورات، العادة محكمة وهي قواعد ثابتة لأنها مبنية على استقرار أحكام فقهية كثيرة حتى وصلت إلينا .

أما المتغيرات في الشريعة الإسلامية : فتتمثل في الأحكام الفقهية الفرعية المستمدة من نصوص ظنية الدلالة، يمكن الاجتهاد فيها، أو تلك النصوص التي تستمد من نصوص معللة بعلة خاصة - والتي تتغير بتغير الزمان أو

المكان - أو الأحكام المبنية على قواعد العرف والتي تتغير بتغيره وأيضاً الأمور التي تندرج تحت الكماليات والتحسينيات، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان. ولا يعني هذا الثبات في تعاليم الشريعة الإسلامية وأحكامها بأي صورة من الصور، الجمود أو محاربة كل جديد، فحركة الاجتهاد والتطور في حياة المسلمين مستمرة، لكنها حركة منضبطة وهي دائماً تتم داخل إطار ثابت، مراعية الفرق بين الثابت المرتبط بالعقيدة والاخلاق والاحكام قطعية الثبوت والدلالة وبين المتغير المرتبط بالشريعة وبالأحكام ظنية الثبوت والدلالة. ومن الملاحظ في الفقه القديم أن " الاولوية للعبادات على المعاملات وفي الفقه الجديد الاولوية للمعاملات على العبادات، فالعبادات قد استقرت أما المعاملات فهي بحاجة إلى فقه جديد " (11). ذلك يعني ان مجال الفكر الإسلامي الذي يتحرك فيه الفقهاء في الوقت الراهن درساً واجتهاداً واستنباطاً لأحكام جديدة هي المعاملات التي كثرت بين الناس وبين الدول وتشعبت في مجالات كثيرة، كل ذلك يحتم علينا مناقشة موضوع الاجتهاد والتجديد في الفكر الديني.

التجديد والاجتهاد في الفكر الديني : مقدمة :

من العجيب أن يتحدث فقهاء دين كبار عن تجديد الدين وعن مقارنة الأديان وذلك لأن المنظور القرآني يقول بأن الدين السماوي واحد {إن الدين عند الله الإسلام} ولا توجد أديان بل رسالات سماوية و شرائع متعددة وربما يقصدون الأديان البشرية الوضعية المتعددة وهذا منطقي ويجب عليهم ان يوضحوا ذلك .

أما تجديد الدين فهو خطأ منهجي لأن الدين كامل مطلق يحتوي الحوادث المتجددة على الدوام لأنه جاء من الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ويعلم ما يصلح للإنسان في كل زمان ومكان، وبهذا فإن الحديث يجب أن ينصب على تجديد الفكر الديني - الذي يعني فهم الناس للدين وتفسيرهم لذلك الفهم من خلال السلوك - الذي يحتاج لذلك في كل زمان ومكان وهذا منطقي في ظل المستجدات المعاصرة التي نعيشها والمعاملات التي طرأت بسببها سواء بين الأفراد أو الدول ويغدو التجديد للفكر الديني " مشروع يركز على فهمنا الديني وقراءتنا له وليس على الدين نفسه، فالدين فوق أن يتجدد " (12).

ويمكن أن نأخذ مثلاً واحداً يوضح ما نقصد : فالشيخ محمد الغزالي رحمة الله تغشاه (1917-1996م) يقول أن : " تجديد الدين يعني توضيح ما ابهم الجهل من تعاليمه وتمكين ما زحزح التهاون من امره وحسن الربط بين

أحكامه وبين ما يحدث في الدنيا من أفضية وتنزيل أحوال الحياة المتغيرة على مقتضيات القواعد العامة والمصالح المرسلة " (13) .

ويقول آخر متحدثاً عن التجديد : " لقد كان تجديد الدين في فهم المجددين الربانيين وفي اعمالهم يعني : إعادة الدين بنصوصه وقواعده ومناهج الفهم والاستنباط فيه إلى حالته الأولى التي انزله الله عليها وإزالة كل ما تراكم عليه من سمات ومظاهر طمست جوهره وشوّهت حقيقته (14) .

ما سبق يعني ان هناك خطأ واضحاً - وفاضحاً أيضاً - بين الدين وبين الفكر الديني ، بين السماوي والأرضي وبين الإلهي والبشري ، بين الكامل والمطلق وبين الناقص والنسبي وهو يحتاج إلى إعادة النظر ، لأن التجديد المطلوب يجب أن يظهر في الفكر الديني الذي يعني طريقة فهم الناس لتعاليم الدين وكيفية تطبيقها في الواقع المعاش وخصوصاً في مجال فقه المعاملات .

معنى التجديد :

يعد مصطلح التجديد أحد أشد الكلمات إشكالية وإثارة واستفزازاً " في المجتمع الإسلامي المعاصر ، فبينما تصرّ طائفة من الإسلاميين المهتمين بالفكر الديني على ضرورة استبعاد أية ممارسة تجديدية أو إصلاحية في الفكر الإسلامي ، يشدّد آخرون على الأهمية الفائقة لتجديد الفكر الإسلامي وإصلاحه إذا ما اراد المسلم الانخراط في العصر والاصغاء إلى استقهاماته وتحدياته " (15) . وقد استعمل مصطلح التجديد في الفكر الإسلامي ترجمة لمعنى الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " وفي رواية " من يُقيم أمر دينها ، والمراد بتجديد الفكر الديني: إحياء معالمه العلمية والعملية التي أبانتها نصوص الكتاب والسنة (16) .

والتجديد لغة كما يقول ابن منظور في لسان العرب: تجدد الشيء يعني صار جديداً، وجدده أي صيّرهُ جديداً. والجديد نقيض البالي. فيقال "بلى بيت فلان ثم أجد بيتاً من شعر" أي أعاد بناءه. ويقال "جدد الضوء" أي أعاده، "وجدد العهد" أي كرّره وأكدّه (17) .

ولا تخرج تعريفات الفقهاء والمفكرين للتجديد عن المعنى اللغوي ، فالبعض يرى أن : " التجديد في مجال الفكر ، أو مجال الأشياء على السواء ، هو أن تعيد الفكرة أو الشيء الذي بلى أو قدّم إلى حاله الأولى " (18) .

وقد تنوعت تعريفات التجديد وتعددت صيغته ، لكنها لا تخرج عن ثلاثة محاور هي :

1 - أنه يعني : إحياء ما انطمس وأندرس من معالم السنن ونشرها بين الناس وحملهم على العمل بها .

2 - قمع البدع والمحدثات وتعزية أهلها وإعلان الحرب عليهم وتنقية الإسلام مما علق به من اوضاع الجاهلية المعاصرة والعودة به إلى ما كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وعلى آله .

3 - تنزيل الاحكام الشرعية على ما يجد من وقائع واحداث ومعالجتها معالجة نابغة من هدى الوحي (19) .

التعريف الثالث - من وجهة نظري - هو الصحيح الأقرب الى روح التجديد ومضمونه ، أما التعريفان السابقان فيركزان على شكل التجديد دون مضمونه . و المواقف من التجديد لم تكن سلبية دائماً ، بل انقسمت بين مؤيد له وهم رواد الإصلاح الذين " دفعهم وعي المرحلة التاريخية ورهاناتها المستقبلية إلى تبنيّه من أجل احياء الشريعة وإعادة الفاعلية إلى الدين وبعث الفكر الإسلامي وبين معارض له قد ارتدى بعيداً في احضان الماضي بحثاً عن حلول جاهزة لمشكلاته المستعصية بعد أن رفع شعار ليس بالإمكان واعتبرت دعوات التجديد دعوات ظالمة تحركها ايادٍ مشبوهة أو متآمرة على التراث والسلف الصالح " (20) .

والجدير بالملاحظة أن مصطلح التجديد في الفكر الإسلامي قد شابه بعض الغموض وعدم الضبط ، لاكتسابه من خلال التداول العام معنى يتجاوز والإلغاء للقديم والسبب في ذلك ينحصر في سببين هما :

1 - عدم اشتهاار المصطلح داخل التراث الإسلامي سابقاً .
2- بروز مصطلح التجديد في الفكر الإسلامي الحديث في مرحلة بدأت تتسرب فيها المنهجية العلمانية إلى حياتنا الفكرية والمعرفية والقيمية والفنية والأدبية ، فشاع استعماله عند بعض مفكري الإسلام ممن يقتربون في نسقهم الفكري من القيم والمناهج الغربية ، فأصبح بعضهم يتوجس خيفةً منه ، لأن التيار العلماني استطاع تأميمه وتعبئته بمضامين جعلته رمزاً لتجاوز الشريعة الإسلامية وهذان السببان جعلاً من عبارة تجديد الفكر الإسلامي عامة - والجانب الفقهي منه خاصة - محل تحفظٍ وحذر حتى اليوم (21) . وبالرغم من ذلك لم يعدم التجديد من ينادي به ويدافع عنه داخل الفكر الإسلامي سواء من المفكرين أو الفقهاء نظراً لأهميته وحاجه الأمة الإسلامية له في الوقت الراهن .

دوافع التجديد ومسوغاته :

إن فشل العديد من التجارب الإسلامية والمشاريع الاحيائية والاصلاحية في الفكر الإسلامي لإخراج المسلمين من عنق زجاجة التخلف الحضاري

والنهوض بهم إلى المستوى المنشود ، شاهد على وجود خلل في تنظيرات الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر ، كان لا يد معه من اصلاح ذلك الفكر بتجديده من الداخل عملاً بقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد : 11]

إن التجديد في الفكر الإسلامي سنة إلهية وضرورة إنسانية وقانون طبيعي وبداية للتغيير الدائم والمستمر للفكر والفقہ والخطاب الإسلامي ، حتى لا تحدث فجوة بين الشريعة الإسلامية الإلهية الثابتة وبين مقتضيات ومتطلبات الواقع المتغير والمتطور على الدوام وبدون التجديد المطلوب سوف يسود حياة المجتمعات الإسلامية الجمود والانغلاق والتقليد والتخلف في الفكر والفقہ والخطاب الإسلامي وسوف يؤدي ذلك إلى انصراف الواقع المتطور من حاكمية الشريعة الثابتة ، فيكون العجز عن أن تظل الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، فتغيب حجة الله على عبادة وهدايته لخلقه ، بعد إن ختمت الشرائع السماوية بشريعة الإسلام ، فكونها خاتمة شرائع السماء إلى الإنسان وصلاحيتها لكل زمان ومكان مرهونان بالتجديد الدائم في الفكر والفقہ والخطاب الإسلامي ، لمواكبة مقتضيات ومتطلبات ومستجدات الواقع المتطور دائماً وأبداً ولبقاء حجة الله على عباده قائمة إلى يوم الدين (22) .

ويرى بعض المفكرين إن الدافع الأول للتجديد ومنبع ضرورته هو إعادة التموضع الحضاري للأمة الإسلامية ويعد من أكبر الأسباب " الملزمة للتجديد في واقع هذه الأمة ، لأنها سلّمت دفة الحضارة إلى غيرها - من الأوربيين - وأخذت أمم أخرى بأسباب الحضارة ... فخسارة العالم الإسلامي موقع الريادة الحضارية وتقدم الأوربيين صار يستدعي تجديداً في الفكر الديني الإسلامي وغير الديني أيضاً " (23) .

كما أن فشل بعض تجارب الأحياء الإسلامي في العصر الحديث وإخفاق الخطاب الإسلامي المعاصر في إحداث النهضة المأمولة للأمة الإسلامية - على مستوى الفكر والواقع - يعد دافعاً آخر للتجديد في الفكر الإسلامي .

الاجتهاد :

والكلام في تجديد الفكر الديني يفضي بنا إلى الكلام عن الاجتهاد ، لأن هناك تلازماً بين التجديد وفتح باب الاجتهاد فلا تجديد بدون اجتهاد ، ولا اجتهاد من دون وجود فكر يؤمن بالتجديد على مستوى الفكر والواقع .

والاجتهاد لغة : هو بذل الوسع في طلب الأمر وهو افتعال من الجهد والطاقة والجهد : الوسع والطاقة والجهد : المشقة .

ومقتضى معناه اللغوي أنه لا يكون إلا في تحصيل أمر مستلزم للكلفة والمشقة ، نقول : أجتهد في حمل الحجر ولا يصح القول : أجتهد في حمل الريشة لعدم وجود الجهد في ذلك .

والاجتهاد اصطلاحاً يعني : بذل الفقيه وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة أو استفراغ الوسع في تحصيل الحجة على الحكم الشرعي (24) .

ويرى بعض الفقهاء والمفكرين أن مجال الاجتهاد هو الاحكام الظنية الدليل من جهة ثبوتها أو من جهة دلالتها أو منهما معاً ، أما الأحكام القطعية فلا سبيل للاجتهاد فيها ، لكن هناك من يرى أن التجديد والاجتهاد لا ينحصر في إطار النصوص الظنية التي تسمح بالحركة بل " يطال النصوص الثابتة ، لأن الاجتهاد ليس تخلياً بالضرورة عن الثوابت ، بل قد يكون فهماً لها أو إبداعاً لشكل من أشكال ممارستها أو محاولة جديدة لتكييفها مع بعضها ، ما دام الفقيه أو المفسر يقدم نظرياته ضمن منطوق علمي يعطيه حق الاجتهاد كما يعطي الآخرين حق نقده في اجتهاده " (25) .

والاجتهاد الذي نعنيه ينبغي أن يتجه أولاً إلى المسائل الجديدة و" المشكلات المعاصرة يحاول أن يجد لها حلاً في ضوء نصوص الشريعة الأصلية وقواعدها الكلية مع إعادة النظر في الفقه القديم لتقويمه في ضوء ظروف العصر وحاجاته " (26) .

لقد كانت إحدى أبرز هموم الفكر الإسلامي المعاصر والمشروع الإسلامي الجديد أن يُعيد التوحيد والامتزاج بين الاجتهاد والتجديد حتى لا تفلت منه علوم الدنيا " من سياق الدين وحتى لا يتخلف فقه الدين عن اتجاه الواقع وهمومه وهذا الأمل المشروع يلزمه بطبيعة الحال إعادة الاعتبار لموجبات الحيوية في أصول الفقه الإسلامي وإعادة الاعتبار لمعطيات روح الشريعة ومقاصدها الكبرى بما يضمن حيوية الحركة الاجتهادية الإسلامية وبما يحقق امتلاكها لزام المبادرة تجاه المستجدات الواقعية في حركتنا الحضارية " (27) .

إن الاجتهاد ضرورة اجتماعية لصياغة حياة المسلمين في الوقت الراهن، صياغة جديدة تواكب التغيرات من ناحية ، وتحافظ على حيوية الإسلام وتطور أحكامه من ناحية أخرى ، وتشق للمسلمين طريقاً للمشاركة في صنع التقدم الحضاري ولا سبيل لذلك إلا عن طريق تجديد الفهم ، وتجديد الأفكار تمهيداً لإضافة الجديد الواعي لحياة المسلمين في جميع المجالات ، الأمر الذي من شأنه أن يصلح للناس دينهم ودنياهم على حد سواء .

سوف نحاول أن نتعرف أكثر على مفهوم الاجتهاد من خلال الفكر الزيدي الذي جعل من الاجتهاد شرطاً لديمومة الحياة وتولي الإمامة كذلك .

الاجتهاد في الفكر الزيدي :

ينسب المذهب الزيدي للإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (80 - 122هـ) - عليهم السلام - ويعتقد الزيديون أن نسبتهم إلى الإمام زيد هي نسبة افتخار واعتزاز " لا نسبة تقليد كلي كما هو الحال في المذاهب الأخرى ، ذلك أن الإمام زيد - من وجهة نظرهم - ليس أولى بالتقليد من غيره من أئمة آل البيت المعاصرين له ولا أنه أولى بالتقليد من الإمام القاسم بن ابراهيم المتوفي سنة 246هـ / 859م أو حفيده الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين المتوفي سنة 298هـ / 910م أو غيرهم وفي المقابل فالزيدية تحرّم التقليد على كل عالم مجتهد " (28).

والزيدية معتزلة في الأصول ، حنفية في الفروع ويطلق عليها: سنة الشيعة وشيعة السنة لأنها أخذت أحسن ما عند كل طائفة من أفكار وقد " شكلت الزيدية نقطة التقاء بين فرق السنة والشيعة بما تمثله من آراء وأفكار عقديّة واجتهادات وأقوال فقهية غلب عليها سمت الاعتدال جراء انفتاحها على مختلف المذاهب ومقتها للانغلاق والتعصب " (29).

ويتميز المذهب الزيدي عن جميع المذاهب الإسلامية المختلفة بأنه المذهب الوحيد الذي ظل فيه باب الاجتهاد مفتوحاً منذ نشأته إلى اليوم كما انها المذهب الإسلامي الوحيد الذي يرى وجوب الخروج على الحاكم الظالم في حال توفر الشروط اللازمة لذلك والمقررة في كتبهم .

و الفكر الزيدي كما يرى فيه الدكتور عبدالعزيز المقالح " - بدون مغالاة أو مبالغة - يشكّل واحداً من أهم المواقف في سلسلة الفكر الإسلامي المستنير القادر على الصمود والعطاء وهو يتميز عن سائر الأفكار الإسلامية بخصائص تجعله فريداً في مكوناته الدينية والدينيّة ومن هذه الخصائص احترام العقل ، تقديس الحرية ، اتساع الأفق ، الثورة على الظلم ، الاجتهاد ورفض التقليد والخرافات " (30).

لقد تضافرت عدة اسباب جعلت المذهب الزيدي نامياً ومتسعاً ومتميزاً ، من اهمها : " فتح باب الاجتهاد في المذهب الزيدي وكان من الاجتهاد فيه اختيار ما يستحسن من حلول في المذاهب الأخرى ... المذاهب الأربعة المشهورة في الأمصار وغيرها وقد صار المذهب بهذا الاختيار حديقة غناء ، تلتقي فيه صور الفقه الإسلامي المختلفة واغراسه المتباينة ، وجناه المختلف الألوان والطعوم " (31).

وأخذهم ما يستحسن من حلول فقهية في المذاهب الأخرى كان قائماً لديهم على اساس أن الاجتهاد لا مذهب له والاجتهاد لدى الزيدية " ملكة علمية ونفسية تمكن صاحبها من استنباط الاحكام الشرعية من مظانها والثقة

بنتائج ذلك الاستنباط بقطع النظر عن مخالفة أو موافقة السابقين من العلماء " (32) . لقد مثلت الزيدية بما تملكه من القدرة على مزج خاصية التفكير بالحراك السياسي عنصراً هاماً من عناصر " التجديد المستمر ، وتمكنت بما تختزله من قواعد جوهرية في تكوينها الفكري المؤمن بأهمية الانفتاح وضرورة احترام العقل والبعد عن التعصب من تحقيق خاصية التعايش البناء مع مختلف المذاهب والفرق الإسلامية " (33) .

ولا نزال ننتظر من مفكري المذهب الزيدي في الوقت الراهن الكثير من الاجتهادات التي تواكب روح العصر وتنفع الفرد والأمة على السواء وتساهم في تسلق سلم الرقي الحضاري للوصول إلى المكانة التي تليق بالأمة الإسلامية .

الخاتمة :

في الختام نقول : أنه إذا كان التجديد مطلوباً في كل عصر، فإنه في هذا العصر أشد طلباً ، والحاجة إليه ماسة أكثر من أي عصر مضى؛ لمواجهة المتغيرات الجديدة والتحديات والمشكلات الاجتماعية المعاصرة وحتى تستطيع الأمة أن تواكب ركب الحضارة وتنهض من كبوتها، وتسترد مكانتها بين الامم ، و إذا شرّعنا التجديد نكون " قد خطونا خطوة الألف ميل وإذا تحدثنا عن وجوبه ، فلا نكون قد قمنا بشيء سوى اننا اثقلنا كاهلنا بالمسئولية الدينية والإنسانية ، فالتجديد قبل كل شيء مخاطرة تحتاج للكثير من المؤهلات وللکثیر من التضحيات والاستعداد وهما أمران يفتقدهما الكثير من دعاة التجديد في عصرنا " (34) . إن الفقيه المسلم في الوقت الراهن يجب أن يكون ملماً بقضايا عصره ومشاكل مجتمعه أو مشاكل البشر المعاصرين ومن الأمثلة على ذلك ما يتصل بقضايا البيئة وتلويثها بالنفائات الضارة - على الأرض والأنسان - وكذلك قضايا التنظيم المجتمعي وتفاعلات الإنسان مع الطبيعة ... فيكون ثمّة فقه بيئي وفقه علائقي في مجال الطبيعة ومجال المجتمعات الداخلية والعلاقات الخارجية (35) .

وينبغي أن يكون الاجتهاد في عصرنا اجتهاداً جماعياً في صورة مجمع علمي يضم الكفاءات الفقهية العالمية ويصدر أحكامه في شجاعة وحرية ، بعيداً عن المؤثرات والضغوط الاجتماعية والسياسية ، مع عدم الاستغناء عن الاجتهاد الفردي الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الاجتماعي (36) .

على الأمة الإسلامية أن تؤمن بأن التقليد غير الواعي لا يمكن أن يوصلها إلى المستقبل المنشود ، بل ما يوصلها هو الاجتهاد الواعي الذي يحمل شروط الأبداع ومسايرة العصر بدون أن يخل بثوابت الأمة وهويتها الفردية والجماعية .

قائمة بمراجع الفصل :

- (1) اسماعيل علي محمد : مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية . دار الندى ، اسطنبول ، تركيا . ط1/2014م . ص184.
- (2) ينظر : حسن حنفي : جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي . مجلة التسامح ، سلطنة عمان . العدد 13، شتاء 2006م . ص3.
- (3) علي علي آل موسى : ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين . كتاب البصائر، بيروت رقم (1) 2005م ، بيروت . 188.
- (4) أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني : الملل والنحل . تح : عبدالعزيز محمد الوكيل . دار الفكر ، بيروت . (د - ت) ص 200 .
- (5) عبدالرحمن بن خلدون : المقدمة : دار الفكر ، بيروت . (د - ت) ص77.
- (6) علي علي آل موسى : ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين . ص187 . سابق .
- (7) حسن حنفي : جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي . ص5 . سابق.
- (8) علي علي آل موسى : ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين . ص187 . سابق .
- (9) حسن حنفي : جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي . ص9 . سابق.
- (10) اسماعيل علي محمد : مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية . ص185 . سابق.
- (11) حسن حنفي : جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي . ص5 . سابق.
- (12) حيدر محب الله : مشروعية تجديد الفكر الديني ، مجلة الكلمة ، بيروت . عدد 62 ، شتاء 2009م ص39 .
- (13) محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام ، دار نهضة مصر ، القاهرة . ط3/2005م . ص120 .
- (14) عدنان محمد إمامه : التجديد في الفكر الإسلامي . دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية . ط1/1424هـ . ص6.
- (15) ماجد الغرباوي : اشكاليات التجديد . دار الهادي ، بيروت . (د - ت) . ص5.
- (16) بسطامي محمد سعيد، مفهوم تجديد الدين، دار الدعوة ، الكويت . ط1/1984م . ص3.
- (17) ينظر : ابن منظور، لسان العرب، 111/3؛ إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح (دار الكتاب العربي ، مصر . ط/ 1990م . ج1/ ص451 .
- (18) جمال سلطان : تجديد الفكر الإسلامي . دار الوطن الرياض . ط1 / 1412هـ) ص13.
- (19) ينظر : عدنان محمد إمامه : التجديد في الفكر الإسلامي . من ص16 إلى ص18 . سابق .
- (20) ماجد الغرباوي : اشكاليات التجديد . ص10-11 . سابق .
- (21) ينظر : حليلة بوكروشيه : معالم تجديد المنهج الفقهي . كتاب الامة ، قطر . العددان : 90-91 . رجب - رمضان 1423هـ . ص53-54 .
- (22) ينظر : محمد عمارة : الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكي . مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة . ط2/2007م . ص7-8 .
- (23) حيدر حب الله : مشروعية تجديد الفكر الديني . ص42 . سابق .

- (24) ينظر : محمد مهدي شمس الدين : الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي . المؤسسة الدولية ، بيروت . ط1/1999م . ص 39 - 40 .
- (25) حيدر حب الله : مشروعية تجديد الفكر الديني . ص 50 . سابق .
- (26) يوسف القرضاوي : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد . مكتبة وهبه ، القاهرة . ط2/ 1999م . ص42 .
- (27) جمال الدين عطية : الفكر الإسلامي بين الواقع والمثال . دار الهادي ، بيروت . ط1/ 2001م . ص 19 .
- (28) زيد بن علي الفضيل : الزيدية علامات وأفكار . مجلة الكلمة ، بيروت . عدد 61 خريف 2008م . ص56 .
- (29) أحمد محمود صبحي : الزيدية . منشأة المعارف ، الاسكندرية . ط/ 1980م . ص256 .
- (30) عبدالعزيز المقالح : قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة . مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء . ط2/ 2014م . ص33-34 .
- (31) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي ، القاهرة . (د- ت) ص665 .
- (32) عبدالله بن محمد إسماعيل حميد الدين : الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات . مركز الرائد ، للدراسات والبحوث ، صنعاء . ط2/ 2006م . ص83 .
- (33) زيد بن علي الفضيل : الزيدية علامات وأفكار . ص71 . سابق .
- (34) حيدر حب الله : مشروعية تجديد الفكر الديني . ص 61 . سابق .
- (35) ينظر : محمد مهدي شمس الدين : الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي . ص81 .
- (36) يوسف القرضاوي : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد . ص41 . سابق .

وجوه الاستعمار المتعددة : من الاستشراق الى العولمة

مقدمة :

يعد الاستشراق من المواضيع التي تشد اليها انتباه المهتمين بالفكر الإسلامي وذلك لأنه يتناول أهم مواضيع ذلك الفكر، فدراسات المستشرقين عن القرآن وعن الإسلام وتاريخه وانتشاره فيها الكثير من الدس والتحريف المقصود بحسب ما زعموه من تحقيق علمي او اكتشاف تاريخي وذلك لأن التوجه الاستشراقي لم يرق على النوايا العلمية المخلصة ، لكنه كان مزيجاً من الحق والباطل - أو تلبيساً لأحدهما في الآخر - من أجل ذلك على الباحث في الفكر الإسلامي أن يُعنى بتحديد مفهوم الاستشراق والوقوف على معالمه الواسعة ومظاهره المتنوعة وأهدافه الظاهرة والباطنة ، ليصبح على بينة من أمر يمس أهم جزء من حياته وهي الأفكار كي يكون على وعي بها .

ويمكن القول بثقة بأن الاستشراق في دراسته لكل ما يتعلق باللغة العربية وبالإسلام لم يكن علمياً بأي مقياس علمي " وإنما هو عبارة عن أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويح تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما اذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهايم واقتراءات وهو مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة وهو أقرب إلى مهنة التبشير (1) "

وسوف نحاول أن نتناول بعض تعريفات الاستشراق، لنخرج من خلالها بمفهوم واضح عنه، يساعدنا في الاقتراب منه ومعرفته معرفة واضحة تبين الأهداف الحقيقية الباطنة له وليست الأهداف الظاهرة المعلن عنها من قبل المستشرقين

تعريف الاستشراق :

الاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويراد به : دراسة علوم الشرق و أحواله وتاريخه ومعتقداته وبيئاته الطبيعية ، العمرانية والبشرية ودراسة لغاتهم ولهجاتهم وطبائع الأمة الشخصية في كل مجتمع شرقي ودراسة الاشخاص والهيئات والتيارات الفكرية والمذهبية في شتى صورها وأنواعها (2) .

والمفهوم العلمي لكلمتي الاستشراق والمستشرقون قد مرّ بأدوار مختلفة منذ عام 1683م عندما كان يعني المستشرق حينها : أحد

اعضاء الكنيسة الشرقية إلى عصرنا هذا ، و أصبح يعني " التبحر في إحدى لغات الشرق وآدابها باعتبار ذلك شرطاً أساسياً في علم الاستشراق " (3) .

والمستشرق هو كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة - وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة - معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما، ويرى البعض أن الاستشراق هو " علم يختص بفقهِ اللغة خاصة " و المستشرق - بحسب قاموس اكسفورد الجديد - " هو من تبحر في لغات الشرق وآدابه " (4) .

ويرى البعض أن الاستشراق هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى الشرق وبين الغرب... وهو بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق والتعامل يعني : التحدث واعتماد آراء معينة عنه ووصفه وتدريبه للطلاب وتسوية الأوضاع فيه والسيطرة عليه ، باختصار : الاستشراق هو أسلوب استعماري غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه (5) .

لقد نشأ الاستشراق في بدايته نتيجة علاقة التقارب الخاص بين فرنسا وبريطانيا من ناحية وبين الشرق من ناحية أخرى ... وكان الشرق ينحصر معناه الفعلي حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر في الهند والأراضي المذكورة في الكتاب المقدس ومنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لفرنسا وبريطانيا السيطرة على الشرق وعلى الدراسات الاستشراقية ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية أصبحت أمريكا هي التي تسيطر على الشرق وتتبع في ذلك النهج الفرنسي البريطاني (6) .

بدايات الاستشراق :

من الصعب تحديد تاريخ معين بدء به الاستشراق، أو معرفة أول غربي عُني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت بدء ذلك ، لقد قام في البداية على جهود فردية لم تكن ذات تأثير على مجرى التفكير الغربي مما أدى إلى عدم اتخاذها نقطة بداية لدى بعض

الباحثين ، لكن بعض الباحثين يؤرخ له بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية والإشارة هنا إلى الاستشراق الكنسي تدل على وجود استشراق غير رسمي لا يرتبط بالكنسية قبل ذلك التاريخ من خلال باحثين أوروبيين . وأول استعمال لكلمة مستشرق ظهر عام 1630م عندما اطلقت على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية - أو اليونانية - ويذكر (رودنسون) أن كلمة مستشرق ظهرت في اللغة الانجليزية عام 1779م ودخلت كلمة الاستشراق في معجم الاكاديمية الفرنسية عام 1838م⁽⁷⁾.

وبعض المؤرخين يعودون به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين، ويرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري، و نشاطه في الشام كان بواسطة الراهب يوحنا الدمشقي في كتابين الأول: حياة محمد ، والثاني: حوار بين مسيحي ومسلم. وكان هدفه إرشاد النصارى في جدل المسلمين، لكن كل ما سبق يبقى مجرد احتمالات لا ترقى إلى مرتبة اليقين .

ويمكن اعتبار الحروب الصليبية - التي بدأت التعبئة لها في مجمع كليرمونت سنة 1095م على عهد البابا أوربان الثاني (1088 - 1099م) - هي البداية الحقيقية للاستشراق وترجع في الأساس إلى أنه قد تبلور كتيار فكري عام ، إذ ان الاحتكاك بالمسلمين يفرض على العالم الغربي التعرف على العالم الإسلامي ودراسته ولعل طبيعة المرحلة الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين قد أدت إلى افراز بيئة عدائية - في السلوك - وفي المنهج في تعاملها مع الإسلام جرّد المستشرقين من الموضوعية والأمانة العلمية واستمرت تلك الدراسات تغذي الأجيال اللاحقة من المستشرقين⁽⁸⁾.

ومن المؤكد أن الاستشراق نشأ في أحضان الكنيسة ، فبعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس عندما كانت في عز مجدها وازدهارها وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم وتعلموا على يد علماء مسلمين في مختلف العلوم - وبخاصة الفلسفة والطب والرياضيات .

وبعد إن عادوا إلى بلادهم نشروا الثقافة العربية الإسلامية ومؤلفات أشهر علمائها وأسسوا بعد ذلك المعاهد للدراسات العربية منها مدرسة (بادوي) العربية وأخذت الأديرة والمدارس الغربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللغة اللاتينية - لغة العلم في أوروبا حينها - واستمرت الجامعات الأوروبية تدرس الكتب العربية وتعتبرها المراجع الاصلية فيها لمدة ستة قرون .

أهداف الاستشراق :

يدعي المستشرقون وداعميهم ومؤيدي توجهم من المسلمين أن الهدف من دراسة الإسلام وحضارته ، هدف علمي بروح علمية متجردة ، ونحن لا ننكر أن لدى البعض منهم هذه الروح العلمية ومنهم على سبيل المثال : توماس أرنولد وغوستاف لوبون وجاك بيرك وكاريل وايتين دينيه ، لكن أولئك كانوا استثناءً نادراً ودراساتهم ضئيلة التأثير بالقياس بسيل الدراسات الإستشراقية الجرار التي بلغت في الفترة من عام 1811م إلى 1950 م سنتين الف كتاب تعنى بالشرق العربي وحده ، كم أن الكنيسة منعت تداول الكتب التي أظهرت عطفاً على الإسلام وقدمته على حقيقته ووضعتها في قائمة المحرمات وبطشت بمؤلفيها⁽⁹⁾ .

لقد تنوعت أهداف الاستشراق ما بين أهداف ظاهرة معانة وأخرى باطنة خفية وأنطوى عمل الدارسين للإسلام على نزعتين رئيسيتين : الأولى تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية وتمهيد النفوس بين سكان تلك البلاد لقبول النفوذ الأوربي والرضا بولايته والنزعة الأخرى : تمثلت في الروح الصليبية في دراسة الإسلام ، تلك النزعة التي لبست في الظاهر ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة ، لكن أهدافها الحقيقية غير المعانة كانت السيطرة على عقول المسلمين أولاً تمهيداً للسيطرة على أراضيهم بعد ترويضهم للقبول بذلك .

تمظهرت النزعة الأولى في صورتين : اضعاف القيم الإسلامية الدينية عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحاً يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام ويقوي في نفسه الشك فيه كدين أو على الأقل كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الحياة القائمة وعلى سبيل المثال نلاحظ أن المستشرق الفرنسي رينان يصور عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها تؤدي إلى حيرة المسلم كما تحط به كإنسان إلى الدرك الأسفل كما زعم بحسب فهمه المريض .

والصورة التالية التي تظهر مباشرة - بعد الصورة الأولى - هي
تمجيد القيم الغربية المسيحية (10).

ويمكن القول أن جلّ أهداف الاستشراق مجتمعة تدور حول
المحاور التالية :

الفائدة العلمية والاعراض الاقتصادية والسياسية والاعراض
التبشيرية المحضة لدى بعض المستشرقين واستصلاح المسيحية
لدى البعض الآخر وقد أفصح المستشرق (يوهان فيوك) في
كتابه عن (تاريخ الاستشراق والمستشرقين في أوروبا) عن
الهدف من الاستشراق قائلاً : إن الاستشراق لم " يكن عملاً علمياً
محضاً ، بل أن المراد منه الرد على الإسلام والتبشير بالنصرانية
بين المسلمين من خلال تراجم عربية للإنجيل " (11).

والهدف الرئيس في الاستشراق عموماً هو " محاولة التدليل
على بشرية القرآن هذا هو اتجاه الاستشراق وهو أحد اتجاهين
صبغا التفكير الغربي الذي سيطر على القرن التاسع عشر
بالصبغة الخاصة به " (12).

ويمكن الحديث عن الأهداف المختلفة للاستشراق وتقسيمها إلى :

الأهداف الدينية :

برز الاستشراق منذ البداية بقصد إيقاف التأثير الإسلامي في
العالم الغربي ، ثم تطور ليخدم مشروع الكنيسة بتنصير المسلمين
وكان هدف الاستشراق منذ نشأته خدمة الكنيسة والاستعمار ، فقد
تعاونت الكنسية مع ملوك أوروبا على شدّ أزر المستشرقين
والتمكين لهم في مهمتهم التي كان نصفها الأول سياسياً والآخر
تبشيراً تعصبياً وبحسب رأي بعض الباحثين فإن الاستشراق بدأ
بنشاط الرهبان في مجال الترجمة حين توجهت البعثات العلمية
المسيحية إلى الأندلس ، فقد كان لا بد بالنسبة لهم من معرفة
الإسلام معرفة جيدة عن قرب لمحاربتة محاربة جيدة على
مستوى العقيدة وأنكب المفسرون المسيحيون على ترجمة القرآن
ودراسته من أجل نقده وقد ساهم ذلك في التعريف بالإسلام ، إلا
أنه لم يساهم في إichاد تفاهم أفضل بين المسلمين والمسيحيين .

لم تكن دوافع المستشرقين لدراسة الإسلام بريئة ، نتيجة لتأثير
الكنسية عليهم ولم يكن مقصدهم الدخول في الإسلام كما صرحوا
أو محاولة استيعاب تعاليمه ، بقدر ما كانت غاياتهم تقديم صورة
كريهة ومشوهة عن الإسلام من خلال التشكيك في صحة القرآن

والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويكون مصدر قوتهم وكذلك التشكيك في صحة رسالة النبي - صلى الله عليه وعلى آله - وإرجاع مصادر الإسلام إلى اليهودية والنصرانية وبحسب زعمهم أن " الإسلام تركيب ملفق من المسيحية واليهودية والمجوسية : بدلاً من إرجاع التشابه إلى وحدة المصدر الالهي و النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى. كل ذلك بالطبع سوف يصب في مصلحة الكنيسة التي ستتمكن من الاحتفاظ برعاياها والحيلولة دون دخولهم في الإسلام ،لقد اتخذت الكنسية من الاستشراق أداة لطعن الإسلام ،لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوروبا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحرب الصليبية" (13)

الأهداف السياسية :

استفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي ولذلك عمد لتعزيزه وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوربي واستطاع الاستعمار أن يجند طائفة كبيرة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في البلدان المستعمرة وغدا الاستعمار والاستشراق وجهان لعملة واحدة تصرف في السيطرة على عقول وأفكار الشعوب وعلى أراضيهم وقد عمل بعض المستشرقين مستشارين لوزارات خارجية دولهم وقناصل في سفاراتها وتجسسوا على المسلمين خلال فترة عملهم ، لقد كان التراث الاستشراقي بمثابة الدليل للاستعمار بغرض السيطرة على الشرق من خلال المعرفة بالأجناس المحكومة - أو الشرقيين - والتي جعلت حكمهم سهلاً ومجدياً ، إذ ان المعرفة تمنح القوة والمزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة و هناك حركة جدلية مستمرة بين المعلومات والسيطرة المتنامية ، ولأجل ذلك درس المستشرقون التاريخ العام للأمم الإسلامية وركزوا على إبراز وإظهار الجوانب القائمة فيه وعملوا على إحياء النزعات العصبية واثارة الخلافات المذهبية والفقهية بين المسلمين وعمدوا لتضخيمها لأجل إثارة الفتن بينهم ، بما يخدم

المخططات الاستعمارية ويؤدي في نهاية المطاف إلى اضعاف العالم الإسلامي وتكبيله بقيود التبعية للعالم المسيحي الغربي⁽¹⁴⁾.
الأفكار الإستشراقية :

هناك العديد من الأفكار الهدامة التي حاول المستشرقون نشرها من خلال كل ما انتجوه من دراسات حول الإسلام وتاريخه وحول القرآن الكريم ، تلك الأفكار تتمحور حول فكرتين رئيسيتين ، الفكرة الأولى هي : الطعن بتعاليم الإسلام والربط بينها وبين ما تعانيه الشعوب الإسلامية من تخلف في الوقت الراهن وتتفرع من تلك الفكرة عدة أفكار من أهمها :

1 - فكرة توقيت الجهاد بعهد الرسول - صلى الله عليه وعلى آله - وعهد الصحابة فقط وأنه لم يعد صالحاً في الوقت الراهن وبالتالي يجب الغائه من المناهج الدراسية تلك هي الفكرة التي حاول المستعمرون ترويجها عن طريق الدراسات الإستشراقية وقد عادت للظهور إلى الواجهة من خلال المطالبات الأمريكية بإلغاء فكرة الجهاد من المناهج الدراسية والضغط على الحكومات العربية والإسلامية للقيام بذلك وهو ما تم بالفعل في العديد من الدول الإسلامية وخصوصاً السعودية والإمارات من دول الخليج وبعض البلدان العربية والإسلامية.

2 - فكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى الولاء لغير المسلم - وإلى رضا المسلم عن حكومته إذا فعلت ذلك - وهذا ما هو حاصل في الوقت الراهن من مولاة بعض الأنظمة العربية والإسلامية لليهود والنصارى ومعاداتهم للمسلمين عن طريق ما تطبيع العلاقات بين دولهم ودولة الكيان الصهيوني الغاصب .

3 - فكرة ابعاد الإسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد وأن الإسلام دين فردي شخصي لا يصح أن يتدخل في علاقات الأفراد بعضهم ببعض وهي تستتبع ما يقال من وجوب الفصل بين الدين والدولة .

4 - وأن الإسلام يتجدد ويخضع لعامل الزمن في تطوره هي فكرة استعمارية وتستتبع تلك الفكرة عدم التقييد بتعاليم التراث الإسلامي جملة في تكييف الحاضر⁽¹⁵⁾ .

الفكرة الثانية من أفكار الاستشراق الرئيسية هي : تمجيد القيم الغربية المسيحية في الفكر الإسلامي الحديث ومن خلال مفكرين مسلمين ، عن طريق ابراز التفوق الغربي في الصناعة وزيادة

الدخل - الخاص والعام - الناشئ عن ذلك التفوق تلك الزيادة التي ترتب عليها رفع مستوى المعيشة وتيسير أمر الحياة الإنسانية لدى الغربيين واعتبار ذلك التقدم الصناعي هو المنقذ وهو النقطة التي يبتدئ منها الغربيون في التدليل على صدقية التوجه الغربي وعلى سمو مقاييس الحياة الغربية في السلوك الفردي والعادات الاجتماعية وعلى أصالة القيم المسيحية وقوة صلتها بتحرير الإنسان من الجهل والفقر والمرض وقوة صلتها أيضاً بانطلاقته في الحياة من غير خوف ولا وجلّ والترويج بأن الحضارة المادية الصناعية هي عنوان كل تلك القيم ومنطقهم ذلك يقول ضمناً : أن تخلف المسلمين في مجال الحضارة التي تفوق بها الغربيون هو دليل على تخلف الإسلام في قيمه ومبادئه وعلى اذلال المسلم وتقييده في السير في هذه الحياة طبقاً لعقيدة الجبر فيه ، أما القيم المسيحية ذات الأثر الايجابي في الحضارة الصناعية الغربية فهي مشخصة في المسيح عيسى عليه السلام ويجب أن نستوحى منه السلوك الخلقى في هذه الحياة والنتيجة التي سيتم الوصول اليها هي أن المسيحية هي دين التقدم والإسلام هو دين التخلف والتأخر وهذا هو السبب في انتشار حركة التنصير والتبشير بالمسيحية في العديد من الدول الإسلامية ونجاحها في ذلك خصوصاً في أفريقيا وشرق اسيا (16).

الاستعمار والاستشراق :

يتفق الاستشراق مع الاستعمار في الهدف ويختلفان في الوسيلة ، فالاستعمار يهدف إلى احتلال الأرض بعد قصفها بالسلاح واخضاع سكانها بمنطق القوة وقد يجد الاستعمار مقاومة من البعض وقد يخسر بعض جنوده أما الاستشراق فهو يهدف إلى قصف العقول واحتلالها بقوة المنطق ، ليسهل عليه بعد ذلك احتلال الأرض دون خسائر تذكر وبرضى من أهلها وبطلب منهم في بعض الأحيان - وهنا مكنم الخطورة - فالاستشراق جاء تطويراً وتعديلاً وتمهيداً للاستعمار العسكري بعد أن أدركت الدول الغربية الاستعمارية كلفة الغزو العسكري وخسائره المادية والمعنوية عليها .

لقد كان التراث الاستشراقي بمثابة الدليل للاستعمار لفرض سيطرته على الشرق وكانت المعرفة المتنوعة بثقافة الأجناس المحكومة وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم " هي التي تجعل حكمهم

سهلاً ومجدياً إذ أن المعرفة تمنح القوة والمزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة ، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيرة المتنامية " (17)

ويرى الكثير من الباحثين أن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتبشير وأنه ما يزال يعمل من أجل هذا الغرض الذي ولد من أجله وإن غير أساليبه وجلده عدة مرات ليتلاءم مع الظروف المختلفة ، فالاستعمار يرى أن المفهوم الإسلامي السليم من شأنه أن يُعطى المجتمع الإسلامي قوة تحول دون سيطرته واستمراره والتبشير يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره وهذا الهدفان يخدمان الاستعمار ويسهلان له احتلال الشعوب في نهاية المطاف (18).

يقوم الاستشراق بهجوم ثقافي بديلاً عن الاستعمار في هجومه المسلح والهدف منه التأثير على نفسيات وعقول الأمة الإسلامية ، كي تصاب بعوامل التفسخ والانحلال فيسهل على الاستعمار توجيهها وفقاً لأهدافه ومصالحه وإذا كانت عمليات الاستعمار العسكرية على الشعوب مفاجئة وسريعة ، فإن عمليات الاستشراق " هادئة وتعتمد على التدرج وتهيئة العقول ووسيلته إلى ذلك هي إبراز السلبيات الثقافية في الثقافات الشعبية وفي أساطيرها وتسليط الضوء عليها من أجل إيهام القاري بأن التراث الإسلامي هو تلك الخرافات الشعبية " (19).

وقد مضى الاستشراق والغزو الاستعماري في طريق واحدة ، المستعمر يغزو الأرض ويحتلها وينهب ثرواتها والمستشرقون يغزون الفكر ويسطون على التراث الإسلامي .. فالاستعمار يحتاج الدعائم الفكرية والروحية التي تمهد له الطريق وتثبت له حكمه وأياً كان الأمر فإن " حركة الاستشراق قد انطلقت بباعث ديني يستهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله والتبشير بالمسيحية ونشرها " (20).

والدليل على ذلك أن الاستشراق نشأ في الدول الاستعمارية التي استخدمت القوة العسكرية وتوسعت واحتلت أراضي الغير وأصبح لها مستعمرات متعددة في القارات المختلفة مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا والمانيا وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا .

ويذهب العديد من الباحثين إلى القول بأن أوروبا تحاول اكتشاف الفكر الإسلامي في المرحلة العصرية الاستعمارية مرة أخرى ،

لا من اجل تعديل ثقافي ، بل من اجل " تعديل سياسي لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية ولتسيير هذه الأوضاع وفق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة لسلطانها " (21)

وبعد تحرير معظم الأراضي العربية من نير الاستعمار الاجنبي بداية من خمسينات وستينات القرن الماضي - وخصوصا بعد اندلاع ثورة 23 يوليو في مصر 1952م ونجاحها في تصدير المد التحرري القومي الناصري - حاول الاستعمار أن يغيّر من جلده وأن يعود لمستعمراته بطرق جديدة ومبتكرة ومنها الغزو الفكري عن طريق وسائل الإعلام التي سيطر عليها من خلال بروز ظاهرة العولمة في بداية تسعينات القرن الماضي .

ثقافة العولمة وعولمة الثقافة

مقدمة :

لم يحض موضوع من التناول والدراسة والنقد في الفكر الإسلامي المعاصر مثل ما حضى به موضوع العولمة - منذ بداية عقد التسعينيات من القرن الماضي وحتى انقضاء العقد الأول من القرن الحالي - ولا يزال الموضوع الشاغل لجل المفكرين المسلمين وهذا هو السبب الرئيس لتناول الموضوع . ويمكن القول أن العالم يعيش حالياً ما يطلق عليه رونالد روبرتسون المرحلة الخامسة من العولمة التي تتصل بالعلاقات الدولية ، على اعتبار أن المرحلة الأولى منها جنينيه مارست فيها أوروبا التوسع عبر الكشوفات الجغرافية المرتبطة بالنهضة الأوروبية وظهور العصر الحديث - في القرنين الخامس عشر والسادس عشر - حينها كانت الانطلاقة نحو اكتشاف العالم الجديد في أمريكا وأستراليا وهو ما أدى بدوره لظهور المرحلة الثانية من العولمة حين زادت وتيرة نشوء الرأسمالية والنشاط الاستعماري في القرن السابع عشر ، مما أفضى إلى المرحلة الثالثة التي أدت لظهور الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر وبتعاظم انجازاتها وهيمنتها على الأسواق دخل العالم مرحلة الاستعمار التقليدي الأوربي على مستوى عالمي في المرحلة الرابعة وهي مرحلة الصراع بين القطبين الرأسمالي الغربي

الأمريكي والاشتراكي الشرقي السوفيتي من أجل الهيمنة على العالم ، وجاء بعد انتهاء الحرب الباردة مرحلة العولمة الراهنة ذات الطابع الأمريكي الاحادي .

يرجع البعض ظهور العولمة بشكلها الحالي - أو طورها الاخير - إلى العام 1990م وهو العام الذي تفكك فيه الاتحاد السوفيتي وانهارت معه المنظومة الاشتراكية - وخصوصاً بعد سقوط جدار برلين في 10 نوفمبر 1989م وتفكك دول الاتحاد السوفيتي في نفس العام دولة بعد اخرى - بعد ذلك ظهر كتاب فوكوياما - فيلسوف امريكي من أصل ياباني - بعنوان : (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) عام 1990م يقول فيه ان تاريخ العالم وتاريخ الحضارة الإنسانية قد أنتهي بسيادة النظام الرأسمالي الأمريكي وإن نموذج الكابوي - رعاة البقر - الرجل الأمريكي هو الإنسان الأخير الذي أصبح نموذجاً يجب أن يُحتذى في كل شي .
وظهر كتاب بول فيريليو عن (نهاية الجغرافيا) قائلاً فيه : أنه لم يعد هناك مكان منعزل ، ولا وطن مستقل ، ولا توجد ثقافة محصنة في زمن العولمة وتطور وسائل المواصلات والاتصالات .

وقد كانت العولمة تحقيقاً للحلم الأمريكي بأمركة العالم - وشيوع ثقافة الاستهلاك - ذلك الحلم ليس جديداً ، لكنه حلم قديم جديد تحدث عنه الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت بالقول : " نحن شعبٌ من المحاربين وما نريدُه هو أمركة العالم باعتبار ذلك مصير وقد امتنا " وقد سنحت لهم الفرصة بأمركة العالم بفعل تقدم وسائل المواصلات والاتصالات - التي حولت العالم إلى قرية صغيرة - واسقطت الحواجز والحدود بين الدول ، حينها ظهر مفهوم العولمة وتعني باختصار: سيادة مفهوم الثقافة الواحدة - المقصود بها الثقافة الأمريكية - أو توحيد العالم تحت هيمنة ثقافية واحدة من خلال إنهاء اسطورة التعدد الثقافي لصالح بروز عالم احادي الثقافة وهذا ما أثار ردود فعل عنيفة لدى الشعوب - ومنها الشعوب الغربية وخصوصاً الشعب الفرنسي والالمانى - المهتدة في عُقر دارها في ثقافتها وهويتها الوطنية ، ذلك أن الثقافة المعولمة تسعى إلى اقضاء الخصوصيات والهويات الثقافية الأخرى إلى الحد الذي لا يُسمح فيه لأي مجتمع أن يكون له ثقافة ذاتية أو هوية شخصية .

وتعني الهيمنة الثقافية لظاهرة العولمة : هيمنة النموذج الأمريكي على ثقافات الامم المختلفة من خلال استهداف الثقافات المحلية والإقليمية ويتم ذلك باستهداف اللغة والدين والاخلاق والتاريخ في كل المجتمعات - باعتبارها تشكل ثوابت الأمة - وعلى سبيل المثال : ظهر كتاب المفكر الأمريكي صموئيل هنتنجتون عام 1993م بعنوان : (صراع الحضارات) - مع العلم بأن المفكر اليهودي برنار لويس هو من اطلق ذلك المصطلح في مجلة ذا أتلانتيك عام 1990م - ويقول فيه هنتنجتون باختصار : أن الصراع سوف ينحصر في المستقبل بين الحضارة الغربية الرأسمالية العلمانية من جهة وبين الحضارة الإسلامية - بشكل رئيسي - وبين الحضارة الكونفوشية الصينية من جهة اخرى ، وهذا ما أدى لظهور مصطلح الإسلام فوبيا - الخوف من الإسلام - الذي برر ظهور الحرب ضد الدين الإسلامي ومحاولة القضاء على الحضارة الإسلامية ، بكل ما تعنيه لأي شعب من هوية وخصوصية ، كالحرب الأولى التي قادتها أمريكا على العراق عام 1991م - أو ما عُرف حينها بحرب تحرير الكويت - وقد شبهها الرئيس بوش الأب بالحروب الصليبية وقال : " إن القرن القادم سوف يشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش الأمريكي " بعد ذلك قامت أمريكا بغزو افغانستان في شهر أكتوبر عام 2001م - بحجة محاربة القاعدة والقضاء على بن لادن - وقامت بعدها بغزو العراق - في 9 مارس عام 2003م ونهبت ثرواته ومعالم تاريخه وحضارته وعملت على تحطيم المؤسسات الدينية للمجتمع العراقي واستبدالها بمؤسسات أخرى ، من أجل القضاء على التراث التاريخي والحضاري للشعب العراقي وضرب هوية المجتمع في الصميم - أو الروح - سعياً منها في نشر الثقافة الأمريكية الاستهلاكية المادية التي تُهيمن على الأفراد والمجتمعات .

وهناك من يختزل منظومة العولمة بالثالوث المقدس - الذي يُسطر الخطوط العريضة المتحكمة في مسار ظاهرة العصر - ونقصد بها : البنك الدولي ، وصندوق البنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية .

مصطلح العولمة ومعناه :

هناك اشكالية تتعلق بتعريف العولمة ، وبرأي أحد الباحثين فإن من يصفهم برعاة العولمة " لم يصوغوا لها تعريفاً ولا تحديداً بل تركوها ملتبسة كي تنظلي مؤامراتهم على البسطاء يريدون من خلالها توسيع مساحة نفوذهم وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة والفن والثقافة وسائر وجوه الحياة وميادينها وضرب الهويات والخصائص في كل أمة " (22) .

وقد ظهر مصطلح العولمة أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد غير انه لم يعد يقتصر على تلك المجالات فحسب ، بل تحوّل إلى نظام عالمي يشمل كل المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية ، ويرى البعض أن العولمة هي الصورة الاستعمارية الوحشية المعاصرة للرأسمالية الإمبريالية القائمة - تحت ما يسميه مؤلفا كتاب فخ العولمة بسلطة ديكتاتورية السوق والعولمة - وهي عولمة استبدادية شمولية جديدة يحقق فيها " 358 مليارديراً في العالم ثروة تضاهي ما يملكه 2.5 مليار من سكان المعمورة أي ما يزيد قليلاً عن نصف سكان العالم وأن هناك 20% من دول العالم تستحوذ على 85% من الناتج العالمي الإجمالي وعلى 84% من التجارة العالمية ويمتلك سكانها 85% مجموع المدخرات العالمية " (23) .

وتعني العولمة في ابسط معانيها : تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل ، أي جعل الشيء على مستوى عالمي بمعنى نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الغير مراقب وكل ذلك يعني الغاء الحدود القومية للدول وفتح الأفكار والحدود على السواء .

وبما ان الدعوة إلى العولمة قد بدأت في امريكا ، فذلك يعني أن الامر يتعلق بتوسيع النموذج الامريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله .

لقد كان للثورة المعلوماتية والتطور الحاصل في مجال تكنولوجيا الاتصال والتواصل في كل مجالاته المختلفة - والتي جعلت من العالم قرية صغيرة - الدور الرئيسي في عولمة الثقافة الامريكية ونقلها إلى كل دول العالم بشكل سريع باعتبارها النموذج الذي يجب أن يسود وينبغي أن يحتذى .

والعولمة هي شكل مطور من أشكال الاستعمار الغربي وتهدف إلى استعمار العقول والأفكار والوعي للشعوب - بدلاً من استعمار الأرض الذي لم يعد مجدياً بالنسبة لها - وبالتالي يسهل السيطرة على تلك الشعوب ونهب مقدراتها وهي مطيعة وراضية .

وأولى مظاهر العولمة هي تركيز النشاط الاقتصادي في يد قلة من الدول والأفراد والشركات وتهميش الكثرة أو أقصائهم نهائياً وهذا ما يفسر المظاهرات السنوية التي ترافق انعقاد مؤتمرات الدول السبع الصناعية في كل دوراتها وذلك خلال انعقاد مؤتمر دافوس الاقتصادي السنوي في سويسرا " وما دام أن العولمة ولدت في بيت السوق وكنف الليبرالية المتوحشة ، فلن تكون إن لم تخرج من هذا الكوخ المظلم إلا متوحشة " (24)

وتتبدى الهيمنة الاقتصادية المعولمة من معرفة أن خمس دول في العالم هي : أمريكا واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا - أخيراً دخلت الصين وأصبحت عملاقاً اقتصادياً ينافس أمريكا - تتواجد فيها 172 شركة من أكبر الشركات العملاقة الموجودة في العالم اجمع والمقدر عددها بـ 200 شركة ، وهذه الشركات هي التي تسيطر فعلياً على الاقتصاد العالمي . وأصبح رؤساء الدول الكبرى - خصوصاً أمريكا - يعملون كمندوبين لتلك الشركات التي تمول حملاتهم الانتخابية ويعملون على توجيه سياسات دولهم بما يخدم مصالح تلك الشركات العملاقة وليس مصالح شعوبهم .

صورة الثقافة من خلال ثقافة الصورة :

أولى مظاهر العولمة واسرعها انتشاراً وتأثيراً هي العولمة الثقافية من خلال الصورة التي تنقلها وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي أيضاً ، فالعالم اليوم يعيش ثقافة الصورة - وليس ثقافة الكتاب - وهي ترسم ملامح صورة الثقافة في ظل العولمة التي جعلت السيطرة على وسائل الإعلام لنشر الثقافة التي تسيطر على العقول .

ومن المعلوم أن مناخ العولمة الذي ساد في بداية التسعينيات من القرن الماضي قد حمل معه رياح التغيير في جميع المجالات ، وأهمها الثقافة التي كانت غاية لدعاة العولمة ووسيلة أيضاً للترويج للعولمة الثقافية التي أراد المرجون لها أن تسود العالم ، تلك الثقافة نقلت مضمون الفعل القرآني الملازم للتفكير من الكتاب الى الصورة التي تركز على الشكل دون المضمون ، وتم تعميم ثقافة الصورة كثقافة جماهيرية لها دعاة ومرجون ، باعتبارها الشكل المناسب لمضمون ثقافة - ثبت فيما بعد - أنها تخلقت خارج رحم الواقع . من هنا يأتي التغيير الثقافي بتحوله من الخطاب الأدبي الى خطاب الصورة ومن ثقافة النص الى ثقافة الصورة وهو تغيير ستتغير معه قوى التأثير الاجتماعية وسيتغير قادة الفكر تبعاً لذلك ، لقد عملت - ولا تزال - وسائل الإعلام المختلفة - وأهمها

التلفزيون - على سلب انسانية الإنسان - باعتباره ذاتاً مفكرة حرة - بتزييف وعيه من خلال استعدادها الدائم في كل الأوقات بالتفكير - بالأصالة عن مالكي تلك الوسائل - وبالنيابة عن الإنسان في مختلف الموضوعات التي تهتمه في جميع مجالات حياته المعاشة ، وغدا كل " ما يشاهده الناس وما يقرؤونه أو ما يستمعون اليه وما يرتدونه وما يأكلونه والاماكن التي يذهبون اليها وما يتصورون انهم يفعلونه كل ذلك اصبح وظائف يمارسها جهاز إعلامي يُقرر الاذواق والقيم التي تتفق مع معايير الخاصة التي تفرضها وتعززها مقتضيات السوق " (25)

إن وسائل الإعلام المختلفة - خصوصاً التلفزيون - لا تعرض الحقائق كما هي في ذاتها وانما تعرض ما يراد له أن يكون حقيقة من وجهة نظر معد البرنامج ومقدمه ومالك القناة ، لقد أصبحت " الحقيقة سلعة تباع وتشتري ويتم تكيفها طبقاً للهدف المطلوب " (26)

ويتوهم الإنسان المعاصر أنه يدير القنوات وهو مسترخ على اريكته والواقع المؤلم أن وسائل الإعلام ومديريها ومالكيها هم من يُديرون الإنسان (بالريموت كونترول) ويقلبون تفكيره ويحددون اختياراته ويوجهون الرأي العام كما يراد له أن يكون من وجهة نظر وسائل الإعلام ومن يقفون خلف الكواليس ، إن وسائل الإعلام أصبحت هي الحاكمة والمسيطرة والموجهة لسلوك الإنسان المعاصر " و إذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل فما اسهل ذلك عن طريق التلفزيون " (27)

لقد اثبت علم النفس الاجتماعي أنه يمكن التأثير على الناس من خلال التكرار المُلح لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع، وتتنظر سيكولوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التلفزيون خصوصاً باعتباره وسيلة - ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب - بل لإخضاع الجوانب الغريزية والعاطفية بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هي آراؤه الخاصة ، وبمرور الوقت أصبح التلفزيون يشكل تهديداً للحرية الإنسانية أكثر خطراً من التهديد الذي يشكله البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي (28)

إن وسائل الإعلام - خصوصاً التلفزيون - لا تعطي الإنسان الفرصة ليخلو بنفسه ويفكر ويتأمل لقد حاصرت في كل مكان وفي جميع الأوقات لأنها في الاساس مصممة لتضليل عقول المشاهدين ، ويتشدد القائمون على تلك الوسائل أنهم ينفذون طلبات الجمهور ويسعون الى تقديم كل ما يرضي الجمهور ، ويمثل هذا تزييفاً

للوعى وافساداً للذائقة إن وسائل التضليل المعاصرة عديدة ومتنوعة لكن من الواضح أن السيطرة على أجهزة المعلومات والصور على كل المستويات تمثل وسيلة أساسية في تزييف الحقائق والترويج للحقيقة من وجهة نظر القائمين على تلك الوسائل وبالتالي يسهل ترويض الناس وقهرهم بشكل أقل ما يوصف أنه أسهل وأضمن، إن تضليل عقول البشر " هو على حد قول بأولو فريير أداة للقهر فهو يمثل أحد الأدوات التي تسعى النخبة من خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة " (29).

ومن المؤكد أن الإعلام العربي يمثل ترساً في الآلة الإعلامية العالمية، وتطبق عليه القاعدة المنطقية القائلة : حكم العام ينطبق على الخاص قياساً، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطاً .

أخلاق العولمة وعولمة الأخلاق :

هناك شبه إجماع من قبل الباحثين العرب والمسلمين وحتى بعض الباحثين الشرقيين - من الصين واليابان على وجه الخصوص على أن خطاب العولمة يبقى فارغاً من أية رسالة إنسانية حضارية إيمانية ويعبر في مناهجه عن غايات مادية بعيدة عن الأخلاق والقيم الإنسانية ، لأن خطاب العولمة يُبجح قتل الأمم أو إضعافها على أقل تقدير ، والجميع لا يزال يتذكر تبرير مادلين اولبرايت - وزيرة خارجية أمريكا في عهد الرئيس جورج بوش الأب - عن سقوط أكثر من نصف مليون طفل عراقي - نتيجة الحصار الذي ضربته أمريكا على العراق منذ عام 1990م حتى غزو العراق عام 2003م - فقط لأن " الثمن يستحق ذلك " (30).

لا تسعى العولمة إلى مواجهة الأخلاق بقوة الدليل ، بل ستعتمد إلى نوع من الججاج المستند إلى اخلاقيات مفارقة جوفاء تتموج بتموج ثقافة الصورة ومنطق تلقيها ، فمن خلال ثقافة الصورة يخف الوازع المنطقي ويحتمل أن تندمج ألوان الطيف جميعاً حتى أن الصورة تعدُّ بعالم يتسع عقله بتقبل المفارقات ولذا سوف تواجه الأخلاق بأنماط استهلاكية تخاطب في المشاهد الغريزة وليس

العقل ، فأخلاقيات العولمة المجوفة مقبولة بالمنطق نفسه الذي تُقبل فيه أنماط الاستهلاك على خلوها من المعنى ، إننا في إعلانات العولمة عن السلع والانماط الحياتية نستطيع ان نفضّل فومها وعدسها وبصلها على المن والسلوى الذي تعطينا اياه ثقافة الكتاب والثقافة الإيمانية القرآنية ، لذا كان لزاماً أن يهبط الذوق والاختيار والقيم إلى سلع السوق (31) .

وإذا كان المدافعون عن العولمة لا يستندون إلى قيم حقيقية غير قيم السوق التي ابتعلت القيم الدينية والإنسانية ، فإن المعارضين لها لم يركزوا على شيء في رفضها أكثر من استنادهم إلى القيم ، لأن مشكلة العولمة بالنسبة لهم بدت في نهاية المطاف مشكلة قيم وأخلاق .

إن اخطر تجليات العولمة كونها معادية للقيم الدينية والإنسانية وقد أشار لذلك الباحث (أسعد السحمراني) الذي رصد سبعة اهداف ثقافية تحاول العولمة تعميمها انطلاقاً من نزعة ليبرالية رأسمالية استعمارية متوحشة وهي :

1- تمجيد ثقافة الاستهلاك حيث وصل الأمر إلى حد التبذير عند سكان الشمال - الدول الغنية - وإلى الحرمان عند أهل الجنوب ومعظمها من دول العالم الثالث والدول الأفريقية على وجه الخصوص .

2 - تقديس الفردية وإطلاق العنان للأنا في سباق محموم شعاره أنا ومن بعدي الطوفان ، فثقافة العولمة تشكّل فيها الدولة دور الحارس لمصالح الأغنياء والغلبة فيها للأقوى نفوذاً مالياً أو اعلامياً أو سياسياً .

3 - توليد مناخات للعنف لأنها تعمل على السيطرة والاختراق عن طريق القوة ، لأن عماد العولمة هي ثقافة حق القوة في حين ان الأصل أن تكون القاعدة المعتمدة هي قوة الحق .

4 - ثقافة العولمة مادية الابعاد لا تقييم وزناً لغير الكم والمقدار ولغة الأرقام ولا يعينها إذا كان كل ذلك على حساب الآخرين أو من خلال استغلالهم أو قهرهم ، لأنها ثقافة لا مكان لها للإنسانية .

5 - لا يوجد في ثقافة العولمة أي اعتبار للقيم والاخلاق السامية ، بل هي ثقافة وضیعة وفتناً هابطاً تنتج هوليود ومطاعم الوجبات السريعة ، وهي لا تحاطب النخب الواعية لأنها تخاف ان يفضحونها إنما يوجهون تلك الثقافة إلى الفئات الجاهلة يستثيرون غرائزهم ليستقطبوا من خلال التلويح بالمصالح أو الوعود بالإشباع المادي .

6 - لا مكان للأسرة المستقرة في ثقافة العولمة إنما يوجهون تلك الثقافة إلى عنصر إشباع اللذة في العلاقات بين الذكر والانثى وقد شرعت الابواب للإباحية من خلال احتقارهم للعفة و المساكنة بدون زواج وصولاً إلى الاجهاض والمثلية في العلاقات الجنسية وقد عملوا لتعميم ذلك من خلال مؤتمر السكان الذي عقد في القاهرة عام 1994م ومؤتمر المرأة في بكين عام 1995م .

7 - لا تحترم ثقافة العولمة الخصائص العرقية والثقافية للشعوب والامم وبالتالي هي لا تعترف بالتعدد ولا التنوع بالرغم من زعم مؤدجي العولمة انهم يعملون على ترسيخ ثقافة حقوق الإنسان ويسوقون أفكارهم تلك من خلال مقولتهم " العالم قرية كونية " يحاولون من خلالها نشر افكارهم (32) .

وهكذا نتضح لنا العولمة على حقيقتها وليس كما يروج لها منظروها .

مظاهر العولمة : الحرب الناعمة المفهوم والمصطلح

مقدمة :

يعتبر مصطلح الحرب الناعمة من المصطلحات الجديدة التي تم اطلاقها في إطار العولمة والهيمنة الثقافية الأمريكية على العالم نتيجة الثورة التكنولوجية التي رافقت تطور وسائل الاتصالات والتواصل الاجتماعي أوائل تسعينيات القرن الماضي ، وهي منتج فكري سياسي جديد تم ابتكاره واشتقاقه بواسطة البروفيسور (جوزيف ناي) - نائب وزير الدفاع الأميركي السابق ومدير مجلس المخابرات الوطني الأميركي، وعميد كلية الدراسات الحكومية في جامعة هارفرد - وهو مقتبس من روح الحرب الباردة - التي كانت قائمة بين الاتحاد السوفيتي والولايات

المتحدة الامريكية - لكنه موجهه في هذه المرحلة بالأساس ضد الدول الإسلامية - وخصوصا جمهورية ايران الإسلامية - ومن نافلة القول أن هذا المصطلح قد تطور ومر قبل ظهوره بثلاث مراحل ومحطات رئيسية :

المحطة الاولى : بدأت بُعيد تحرير الكويت - في يناير 1991م - من قبل الغزو العراقي بالتزامن مع سقوط الإمبراطورية الاشتراكية في العالم بتفكك الإتحاد السوفيتي بعد انهيار جدار برلين الشهير - في 10 نوفمبر 1989م - وفي تلك المرحلة شعر قادة الولايات المتحدة بنشوة النصر في حربهم الباردة ضد خصمهم السوفيتي العنيد ونجاح استراتيجيتهم في توصيله إلى حافة الانهيار، مما مكنهم من تسلم دفة قيادة العالم .

وقد ترافقت تلك النشوة بظهور كتاب الفيلسوف الامريكي - ذو الأصول اليابانية - فوكوياما بعنوان (نهاية التاريخ والإنسان الاخير) عام 1990م ، رأى فيه أن العالم قد وصل إلى نهاية تطوره بسقوط النموذج الاشتراكي وسيادة الرأسمالية بقيادة الكابوي الامريكي أو الإنسان الاخير كما يسميه المؤلف . وفي تلك الأثناء ظهر كتاب (جوزيف ناي) الأول بعنوان (مفارقة القوة : الطبيعة المتغيرة للقوة الأميركية) عام 1991م يتحدث فيه عن القوة العسكرية التي أوصلت أمريكا إلى تسلم دفة قيادة العالم في تلك الفترة .

المحطة الثانية : جاءت عقب هجمات 11 سبتمبر 2001م التي استهدف فيها تنظيم القاعدة أمريكا في عقر دارها وضرب بالطائرات برجي التجارة العالمي في نيويورك وحاول ضرب مبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) بُعيد تلك الاحداث العاصفة أصدر جوزيف ناي كتابه الثاني (ملزمون بالقيادة) تحدث فيه عن الضرورة التي تستدعي أن تقود امريكا العالم لتخليصه من الجماعات الإرهابية والتبشير بالقيم الامريكية كالديمقراطية وحقوق الإنسان وإتاحة الفرص للأفراد كما يقول في كتابه

المحطة الثالثة : جاءت بعد فشل غزو الولايات المتحدة لأفغانستان - في اكتوبر عام 2001 - في تحقيقه النتائج المرجوة وغزوها للعراق في ابريل 2003م ، وتوج جوزف ناي مشروعه الفكري بظهور كتابه الشهير بعنوان (القوة الناعمة وسائل النجاح في السياسة الدولية) عام 2004م ، وقد جاء ظهور ذلك الكتاب بعد فشل أمريكا في اندفاعتها العسكرية في افغانستان والعراق وظهور الخسائر المادية الامريكية في الارواح والعتاد دون وصولها لتحقيق اهدافها العسكرية ، وبعد ولاية الرئيس بوش الابن الثانية والتي ساهمت في نفور الكثير من المؤيدين

بدلاً من جذبهم - كما صرح بذلك أغلب صنّاع القرار هناك - والتي دعت الولايات المتحدة إلى أن تغيّر من سياساتها، و لأجل كل ما سبق اتجه قادة الولايات المتحدة إلى العمل الجاد من أجل امتلاك رؤية جديدة لتوظيف قوتها الناعمة لتعويض الخسائر التي تكبدتها في المرحلة السابقة، فضلاً عن الإخفاقات المتكررة التي أصابت سياساتها - خصوصاً خلال ولاية بوش الابن الثانية - لذلك شددت وزيرة الخارجية الأمريكية آنذاك (كونداليزا رايس) على التواصل بين الشعوب ، وأطلقت شعاراً جديداً يدعى بـ (المثالية العالمية) الذي كان يهدف إلى إشراك الآخرين بشكل فعال - بشكل ظاهري فقط وبما يناسب المصالح الأمريكية - والإصغاء إليهم وعدم التراجع عن الأهداف المثالية . والسبب في تفضيل الأمريكيين للحرب الناعمة بدلاً عن الحرب الصلبة أن الكلفة المادية للحرب الناعمة " لا تتجاوز إنفاق مئات ملايين الدولارات في حين أنفقت الإدارة الأمريكية 3 آلاف مليار في حرب العراق وأفغانستان أي هي نسبة 1 إلى 100 ولا يقتل في الحرب الناعمة أي مواطن أمريكي في حين قتل العشرات آلاف الجنود في حروب أمريكا العسكرية ، ففي حالة فشلت الحرب الناعمة لا أحد يحاسب الإدارة الأمريكية عليها " (33) .

وفي عام 2011م أصدر جوزيف ناي كتابه الأخير بعنوان (مستقبل القوة) والذي يُعد من أهم الاسهامات في ميدان دراسة التغيرات على سياسات الدول الداخلية .

ولا يمكن الحديث عن الحرب الناعمة دون التطرق لمفهوم القوة الناعمة ، لأن المصطلح الاول قد نُحت وُقِدَّ خلال مراحل تطوره من المصطلح الثاني ، من أجل ذلك لا بد من التطرق لمفهوم القوة الناعمة بغرض استيعابه وربطه بمفهوم مصطلح الحرب الناعمة .

مفهوم القوة الناعمة :

القوة الناعمة (Soft power) : هو مفهوم صاغه جوزيف ناي لوصف القدرة على الجذب والضم دون الاكراه أو استخدام القوة كوسيلة للإقناع ، صاغ ناي ذلك المصطلح في كتابه الصادر عام 1991م بعنوان "مفارقة القوة : الطبيعة المتغيرة للقوة الأميركية " ثم قام بعد ذلك بتطوير المصطلح و المفهوم في كتابه الصادر عام 2004 بعنوان "القوة الناعمة: وسائل النجاح في السياسة الدولية" والسياسيين.

وقد عرفها بأنها " القدرة على تشكيل تصورات الآخرين و الحصول النتائج التي يُريدها المرء و القدرة على التأثير في سلوك الآخرين

للحصول على النتائج التي يتوخاها " وقد وضّح ناي مفهومه للقوة الناعمة بأنها : قدرة دولة للحصول على ما تريد عن طريق أشياء جاذبة بدلاً عن الإجبار ... والموارد التي تعتمدها القوة الناعمة تتمثل بالثقافة والقيم السياسية البراقة والسياسات الخارجية القائمة على الحوار والتعاون والاعتماد المتبادل (34) .

القوة الناعمة باختصار : " جعل الآخرين يريدون ما تُريد وأن تختار للناس بدلاً من ارغامهم " (35) .

والمصطلح يستخدم حالياً على نطاق واسع في الشؤون الدولية من قبل المحللين وفي الآونة الأخيرة، تم استخدامه للتأثير على الرأي الاجتماعي والعام لأجل تغييره من خلال قنوات أقل شفافية نسبياً والضغط من خلال المنظمات السياسية وغير السياسية خصوصاً في الدول التي تعارض السياسة الأمريكية والهيمنة الغربية وبدلاً من الضغط على الحكومات والانظمة والجيوش من أعلى ، يتم الضغط من أسفل عن طريق منظمات المجتمع المدني وشبكات الناشطين وبدلاً من الضغط عن طريق السفارات والعلاقات والتصريحات الرسمية يجب الانتقال للتحرك في الميادين والشوارع العامة ونقل الملفات من النقاشات الثنائية بين الادارة الامريكية والحكومات إلى مستوى النقاشات والحوارات الفضائية عبر شبكات الانترنت ومواقع يوتيوب ، فيسبوك ، تويتر وقد تم استقطاب وتدريب آلاف الناشطين في كل دول العالم - خصوصاً دول العالم الثالث وبالأخص منها العربية والإسلامية - وفق أحدث البرامج والتقنيات التي تنتجها التكنولوجيا السياسية الأمريكية وتم إنشاء آلاف المنظمات الشبابية وتمويل وتوجيه آلاف منظمات المجتمع المدني وناشطي الانترنت (36) .

وليس هناك ما هو أهم من القنوات الفضائية - ووسائل التواصل الاجتماعي - في العمل على تكريس مفهوم القوة الناعمة - وصولاً إلى الحرب الناعمة - التي تتم بواسطة تلك الادوات التي توجهها أمريكا للسيطرة على عقول الخصوم وضرب وعيهم والسيطرة على عقولهم - أو التلاعب بها في الحد الأدنى - فكلُ فضائية تعادل سرباً من الطائرات في معادلات القوة الناعمة وكما قال الإمام الخامنئي : " وسائل الإعلام في هذا العصر لها قوة تدميرية تعادل القنبلة الذرية " ويمكن أن ندرك تلك الحقيقة من خلال ما تقوم به القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي ، فعلى سبيل المثال - لا الحصر - تقوم قناة الحرة العراقية - الممولة امريكياً - بالترويج للقوة الناعمة بشكل رسمي من خلال الترويج

للقيم الأمريكية في المنطقة وهو نفس الدور الذي تقوم به قناتي الجزيرة القطرية والعربية السعودية وبشكل غير رسمي .

مصادر القوة الناعمة وادواتها :

من نافلة القول بأن القوة الناعمة تنشأ من الجاذبية الثقافية لبلد ما، والمثل السياسية التي يحملها، والسياسات التي ينتهجها في الواقع وقد حصر جوزيف ناي موارد القوة الأمريكية الناعمة في ثلاثة محاور :

- 1 - تعزيز القيم والمؤسسات الأمريكية وإضعاف موارد منافسيها .
- 2 - توسيع مساحة وجاذبية الرموز الثقافية والتجارية والإعلامية والعلمية الأمريكية والعمل على إضعاف المنافسين .
- 3 - بسط وتحسين وتلميع جاذبية أمريكا وصورتها وتثبيت شرعية سياساتها الخارجية وصدقية تعاملاتها وسلوكياتها الدولية وضرب سياسية أعدائها (37) .

ويرى (ناي) أنه عندما تبدو السياسات الأمريكية مشروعة بنظر الآخرين تتسع القوة الناعمة الأمريكية وعندما نجعل الآخرين يعجبون بالمثل التي نؤمن بها، ونجعلهم يريدون ما نريد فإننا لن نضطر الى الإنفاق كثيراً على موارد السياسات التقليدية - العصا والجزرة - أي على عوامل الإرغام العسكري والإغراء الاقتصادي. ومن أهم المثل الأميركية التي لها قدرة على تحريك وجذب أعجاب الآخرين نحونا - كما يرى ناي - الديمقراطية وحقوق الإنسان وإتاحة الفرص للأفراد .

ويحتاج استخدام القوة الناعمة عموماً إلى الصبر وإلى الاتصال في التخطيط والتنفيذ وليس الانقطاع أما بالنسبة للقوة الصلبة (القوة العسكرية) فإن استخدامها لفرض النفوذ لا يحتاج للأجل الطويل، وإنما يتحقق ذلك أو يفشل مباشرة بعد توظيف واستخدام مصادر القوة الصلبة في الأجل القصير ، فالحروب قد تستغرق أياماً أو حتى سنوات، لكنها تنتهي في أغلب الأحوال إلى نتائج مادية واضحة ومكشوفة، وذلك على العكس من استخدام القوة الناعمة الذي لا تظهر نتائجها إلا عبر الزمن ومن خلال تراكمات بطيئة ، فإذا لم تتوفر شروط الصبر والاتصال والاستدامة، فإن استخدام مصادر القوة الناعمة يفشل في تحقيق الأهداف المرجوة.

وقد حدد (جوزيف ناي) مصادر القوة الناعمة للولايات المتحدة الأمريكية بأنها تعتمد على :

- 1 - مصانع هوليوود وكل الانتاج الإعلامي والسينمائي الأمريكي .

- 2 - الجامعات والمؤسسات التعليمية الأمريكية التي تجذب الآلاف من الطلاب الذين يعودون إلى بلدانهم يحملون قيم المجتمع الأمريكي .
- 3 - المهاجرون ورجال الأعمال الأجانب المرتبطون بقطاع الأعمال الأمريكي .
- 4 - شبكات الانترنت والمواقع الأمريكية المنتشرة في الفضاء الإلكتروني .
- 5 - برامج التبادل الثقافي الدولي والمؤتمرات الدولية التي تنظمها وترعاها الولايات المتحدة .
- 6 - الشركات الاقتصادية العملاقة العابرة للقارات (شركة بوينج ، شركة مايكروسوفت ، شركة آبل)
- 7 - الرموز والعلامات التجارية الاستهلاكية الأمريكية مثل الكوكولا والماكدونالدز .
- 8 - وكالات التنمية والمساعدات الدولية الأمريكية أو الدولية التابعة لها .
- 9 - برامج التدريب والتعاون العسكري لقادة وضباط الجيوش الأجنبية التي تلقت تعليمها أو تدريبها في الولايات المتحدة (38) .

الحرب الناعمة وتعريفها :

والحرب الناعمة مشتقة من مقولة (القوة الناعمة) كما روج لها المنظر الأول (جوزيف ناي) وتعتمد على نقل المعركة من الميدان الحقيقي للحرب الذي تحكمه عدة أمور منها التقدم العسكري في المعدات وغيرها من الأدوات ومرورًا بالصبر والتضحية والثبات والإيمان بقضية والدفاع عنها، وتعرف الحرب الناعمة بأنها : العمل المنظم الذي يستعين بالأدوات والأساليب التبليغية والإعلامية والسياسية والنفسية للتأثير على الحكومات والأحزاب والمواطنين في الدول المعادية بهدف تغيير رؤاها وقيمها وسلوكها . وهي كل عمل ناعم يستهدف القيم والضوابط في المجتمع ويؤدي إلى تغيير النماذج السلوكية الموجودة وإيجاد نماذج جديدة تتعارض مع النماذج السلوكية التي يريدها النظام (39) .

وقد واجهت الدول الإمبريالية هذه عقيدة المقاومة للغزو العسكري لدى الكثير من الشعوب التي احتلتها وهي بدورها ترهق أي جيش نظامي مهما بلغت قوتها العسكرية ولنا في حرب فيتنام - في القرن الماضي - والتي تعد نموذجاً لتلك المقاومة التي تعتمد على قضية محقة وعزيمة قوية لأفراد الشعب مما أدى بدوره إلى كسر القوة العسكرية التي كان يتفوق بها الجيش الأمريكي، وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ على هذا

الأمر. مما اضطر الإمبريالية العالمية ومن خلال مراكز أبحاثها ومتخصصيها الذين يرصدون ويحللون الواقع في كل البلاد تقريباً إلى البحث عن طرق جديدة لغزو الشعوب والسيطرة على مقدراتها، حيث أن الطرق القديمة للغزو أصبحت تكلف الدول الغازية أثمناً باهظة في الأرواح والمعدات وبدأت تكشف المعنويات الرخوة التي يتمتع بها جنود تلك الدول حيث لا توجد قضية محقة يحاربون من أجلها، وما حدث في العراق وأفغانستان من مصائب لحقت بالجيش الغازية خير دليل على ما ذكرناه .

عرّف (مايكل آيزنشتات) الباحث المتخصص في الدراسات الأمنية والعسكرية في معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى الحرب الناعمة بأنها : (استخدام الأقوال والأفعال والصور الانفعالية كجزء من حملة تواصل استراتيجي طويلة المدى لتشكيل الحالة النفسية لبلد معادٍ لميركا. وحدد أن نسبة الأقوال والتصريحات الإعلامية يجب أن تشكل 20% من حملة التواصل الاستراتيجي الناعمة، في حين تتشكل 80 % الباقية من برامج وأفعال وتحركات ملموسة على الأرض)
وأضاف أن القوة تنقسم إلى ثلاثة أشكال وأنواع : القوة الاقتصادية والقوة الصلبة العسكرية والقوة الناعمة .

وعلى هذا الأساس فالقوة الصلبة لا تنفصل عن القوة الناعمة والقوة الاقتصادية، فهذه القوى الثلاث تشكل أبعاداً وزوايا القوة والتفوق والهيمنة والسيطرة في السياسة الدولية .

أهداف الحرب الناعمة :

تعتمد الحرب الناعمة على رفع شعارات ومطالب الناس واستغلالها والبحث عن قيم مشتركة ومحبوبة مع الطرف المستهدف (الديمقراطية ، حقوق الإنسان ، السلام ، الحريات ، اتاحة الفرص ، الازدهار الاقتصادي ، الاستقرار) وكما قال جوزيف ناي : " لا يمكن لأي حملة تواصل استراتيجي مهما كبرت وتوسعت ولا لأي قوة ناعمة أن تؤثر وهي تروج شعارات ومطالب غير مرغوب بها شعبياً في ساحة الخصم " تهدف الحرب الناعمة إلى خلخلة صفوف الخصوم من خلال :

- 1 - اللعب بقواعد الخصم .
- 2 - خلق حالة من التشكيك في الثوابت والمعتقدات التي يتبناها الخصم .
- 3 - في حالة الحرب الناعمة يتمظهر الاشتباك مع الخصم الخارجي بلون محلي تماماً من خلال وكيل محلي (عملاء ومرترقة) في إطار

بيئة حاضنة لأهداف الخصم بطريقة غير مباشرة ، يستعير الوكيل المحلي فيها خطاباً حماسياً لا يُثير أي شبهة من حوله . ويمكن أن نطبق تلك الاهداف على ما شنته وسائل إعلام دول تحالف العدوان السعودي الأمريكي على اليمن منذ بدايته - فجر الخميس 26 مارس 2015م - وحتى اليوم لندرك أن ذلك العدوان قد شن حرباً ناعمة ضد عقول المواطنين - محاولاً قصفها والتلاعب بها - لا تقل شراسة عن الحرب الصلبة والغارات التي شنها ضد المدنيين والحرب الاقتصادية التي شنها كالحصار البري والجوي والبحري وقطع رواتب الموظفين واستخدام الجوع كسلاح فتاك ، من خلال وسائل إعلام دول تحالف العدوان ومن خلال الذباب الالكتروني المستأجر في وسائل التواصل الاجتماعي وحتى في وسائل المواصلات العادية لترويج مقولات عن رياح السلام واهمية أيقاف الحرب - يسمونها حرباً كما يدعون وليس عدوناً كما يعرفها القرآن الكريم وقواعد القانون الدولي ايضاً - من أجل ان ينعم المواطن بالأمن والأمان .

قائمة المراجع :

- (1) أحمد عبدالرحيم السابح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة . ط1/1996م . ص15 .
- (2) ينظر : عبدالمتعال محمد الجبري : الاستشراق وجه الاستعمار الفكري . مكتبة وهبه ، القاهرة . ط1/1995م . ص13 .
- (3) أحمد عبدالرحيم السابح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي . ص12 . سابق .
- (4) المرجع السابق : ص11 .
- (5) ينظر : إدوارد سعيد : الاستشراق : المفاهيم الغربية للشرق . تر : محمد عناني . دار رؤية للنشر ، القاهرة . ط1/2006م . ص45 - 46 .
- (6) ينظر : المرجع السابق . ص47 .
- (7) ينظر : أحمد عبدالرحيم السابح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي . من ص17 إلى ص20 .
- (8) ينظر : عبدالله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1/1997م . ص17 .
- (9) المرجع السابق : ص26 .
- (10) ينظر : محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . مكتبة وهبه ، القاهرة . ط4/ (د - ت) ص39 - 40 .
- (11) عبدالمتعال محمد الجبري : الاستشراق وجه الاستعمار الفكري . ص16 . سابق .
- (12) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . ص199 . سابق .
- (13) ينظر : عبدالله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . من ص18 - 20 . سابق .
- (14) ينظر : المرجع السابق : ص22 .
- (15) ينظر : محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . ص49 . سابق .
- (16) ينظر : المرجع السابق : ص50 - 51 .
- (17) عبدالله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . ص22 . سابق .
- (18) ينظر : أحمد عبدالرحيم السابح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي . ص32 . سابق .
- (19) محمد ابراهيم الفيومي : الاستشراق رسالة استعمار . دار الفكر العربي ، القاهرة . ط1/1993م . ص109 .
- (20) عبدالمتعال محمد الجبري : الاستشراق وجه الاستعمار الفكري . ص87 . سابق .
- (21) ينظر : عبدالله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . ص23 .
- (22) محمد بشاري : قراءات نقدية في القراءات العربية للعولمة ، فصلية الكلمة ، بيروت . العدد 57 ، خريف 2007م . ص136 .
- (23) هانس بيتر / مارتين هارلدشومان : فخ العولمة . تر: عدنان عباس ، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، عدد238/ أكتوبر 1998م . ص11 .

- (24) إدريس هاني : العولمة وخطر التجويف القيمي. فصالية الكلمة اللبنانية، عدد 61/ خريف 2008م ، ص116.
- (25) هربرت.أ.شيللر. المتلاعبون بالعقول ..تر: عبد السلام رضوان .عالم المعرفة الكويت عدد243.مارس1999م.ص212
- (26) روجيه جارودي : حفارو القبور- الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها .- تر: عزة صبحي .دار الشروق القاهرة .ط3/2000م.ص78
- (27) المرجع السابق: ص 79 .
- (28) ينظر: علي عزت بيجوفتش .الاسلام بين الشرق والغرب .ص108.سابق.
- (29) هربرت .أ.شيللر: لمتلاعبون بالعقول . ص 11 .سابق .
- (30) محمد بشاري : قراءات نقدية في القراءات العربية للعولمة ، ص144. سابق .
- (31) ينظر : إدريس هاني : العولمة وخطر التجويف القيمي. ص115. سابق .
- (32) محمد بشاري : قراءات نقدية في القراءات العربية للعولمة ، ص145-146. سابق.
- (33) علي محمد الحاج حسن : الحرب الناعمة الأسس النظرية التطبيق . المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، النجف الأشرف . ط1/2018م . ص13.
- (34) ينظر : جوزيف س ، ناي : القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية . تر : محمد توفيق البجيرمي ، مكتبة العبيكان ، الرياض . ط1/2007م . ص13 - 32 .
- (35) حسن محمد الزين : الحرب الناعمة ، المفهوم النشأة ، سبل المواجهة .مركز قيم للدراسات ، بيروت . ط1/2011م . ص13.
- (36) ينظر : علي محمد الحاج حسن : الحرب الناعمة الأسس النظرية التطبيق . ص20 . سابق.
- (37) ينظر : جوزيف س ، ناي : القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية . ص32 ، 33. مرجع سابق .
- (38) كاظم الصالحي : الحرب الناعمة : الاهداف وسبل المواجهة . المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، النجف الأشرف .(د - ت) ص33.
- (39) المرجع السابق ص15.

سقوط النماذج وبداية عصر النهايات في الحضارة الغربية

ساد الحديث - منذ العقود السابقة ولا يزال - بين مفكري الحضارة الغربية المعاصرة عن النهايات ، وقد بدأ بإعلان نتشه عن نهاية الإله على لسان زرادشت في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) بعد أن لاحظ ذلك من تصرفات الناس واخلقهم التي افتقرت الى وجود الرقيب الذي يجعلهم يفعلون الخير ويهربون من الشر بدافع الخوف من الله وتبعه الإعلان عن نهاية الإنسان - الذي ورد في نهاية كتاب ميشال فوكو عن (الكلمات والأشياء) عام 1966م - باعتباره - كما قال - اكتشافاً حديثاً وسيختفي الإنسان كما يختفي وجه رسمناه في الرمال بين أمواج البحر . وتوالى مع كتاب (نهاية التاريخ) لفرانسيس فوكوياما عام 1991م - قائلاً فيه : أن التاريخ قد أنتهى عند النموذج الديمقراطي الليبرالي الرأسمالي الأمريكي على وجه الخصوص وأن العقل البشري وصل إلى أقصى تطوره مع ذلك النظام - وظهر أيضاً كتاب بول فيريليو عن (نهاية الجغرافيا) قائلاً فيه : أنه لم يعد هناك مكان منعزل ، ولا وطن مستقل ، ولا توجد ثقافة محصنة في زمن العولمة وتطور وسائل المواصلات والاتصالات ، وتم الاعلان كذلك عن نهاية العولمة في كتاب يحمل نفس العنوان ل هارولد جمس عام 2001م، يبشر فيه بانتهائها كمنتج أمريكي في القريب العاجل وظهر كذلك كتاب لفرانسيس فوكوياما عن (نهاية الإنسان) عام 2002م، تحدث فيه عن عواقب الثورة البيو تكنولوجية ، معتبراً أن نهاية الإنسان ستكون من عواقب المعرفة . وكثر الحديث في الحضارة الغربية أيضاً عن الما بعديات : ما بعد الحداثة وما بعد الصناعة وما بعد الاستعمار وما بعد الفلسفة والعلم وما بعد الدولة والديمقراطية .والجدير بالملاحظة أن تلك المقولات عن الما بعديات - أو النهايات - يجب الا تقرأ بصورة حرفية مباشرة بوصفها ابيسولوجيات معرفية حاسمة وفاصلة بين أطوار من الوجود والعدم في الحضارة الغربية " فالحاضر الآن كان ماضياً سابقاً ، والمستقبل هو ما جاءنا به الحاضر ولذا نحن إزاء عبارات تأويلها أن العالم الموجود نفسه لم يعد كما كان عليه ، إن من حيث زمنه وفضائه ، أو من حيث نظامه وإيقاعه ، أو من حيث قواه وألياته ، فضلاً عن عقلانيته وأنسيته " (1) .

وبناءً على ما سبق : يمكن أن نضيف إلى الما بعديات السابقة المتوقع أن تظهر على السطح : ما بعد كورونا وما بعد الولايات المتحدة الأمريكية وما بعد الدولار - خصوصاً بعد إصدار الصين اليوان الالكتروني وبدأ

التعامل بالذهب مقابل النفط - وما بعد الاتحاد الأوروبي ، لأن تسونامي كورونا عصفت بالعقل الغربي - و العقل الأمريكي بشكل خاص - وشكّلت زلزالاً وجودياً طمرت ثقته بالنظام الرأسمالي المتوحش وسوف يُعيد ذلك العقل النظر في الكثير من المفاهيم والتصورات التي كان يعتبرها مسلمات ، منها جدوى وجود الولايات المتحدة وفائدته بالنسبة لبقية الولايات وربما نشهد بروسيا أمريكا أمريكية - على غرار ما فعله جورباتشوف مع الاتحاد السوفيتي سابقاً - وسوف تعيد غالبية الشعوب الأوروبية التفكير في علاقتها الذيلية بأمريكا - والتي بدأت مع خطة مارشال وبمقتضاها أقرضت أمريكا أوروبا أكثر 12 بليون دولار بين عامي 1948م و1951م وقد اشترت بها أوروبا أكثر من ثلث الصادرات الأمريكية عام 1949م - وسوف تنتهي الهالة الكاريزمية التي تربط الذيل بالظهر والتي رسمتها تلك الشعوب حول الظهر والسند لأنها رأت أمريكا اليوم بعين كورونا وليس بعين كاميرات ومخرجي هوليوود كما كان يحدث من قبل . وربما ينهار الاتحاد الأوربي بشكل تدريجي لأن سوس الخلافات بين قيادات دوله - حول الزعامة التي لم تظهر وقت الأزمات - سوف تأكله من الداخل وبيبطىء وسوف تتنامى النزعات القومية وستتوج بفوز أحزاب اليمين المتطرف في دول الاتحاد - والتي ترى من خرم باب القومية الضيق ولا ترى من نافذة الاتحاد الواسعة - وستغلق أبوابها أمام كل أجنبي وسترفض استقبال اللاجئين مهجرة معظم القيم الليبرالية التي قام عليها الاتحاد الأوربي.

ومن المؤكد أن الكثير من المفاهيم والتصورات - وكذلك المواقع - لن تظل كما كانت من قبل ، لقد أعطى كورونا هوية جديدة لكوكب الأرض ولشكل النظام العالمي المحتمل وأعاد رسم الهندسة الجيواستراتيجية بين المركز والمحيط وسوف تنضبط بوصلة التوجه الإنساني العالمي إلى الشرق بدلاً عن الغرب وإلى الجنوب بدلاً عن الشمال وإلى الأطراف بدلاً من المراكز تأكيداً لسنة التدافع التي تحدث عنها القرآن الكريم . لقد تنبأ الفيلسوف روجيه جارودي عام 1998م أن البديل للعولمة والهيمنة 91 لأمريكية المتوحشة سيكون من الصين وبواسطة طريق الحرير الجديد (2).

والوقت الحالي أثبت صحة تنبأته خصوصاً بعد جائحة كورونا والقفزات المتسارعة للاقتصاد الصيني وهيمنته على تقنية الجيل الخامس بواسطة شركتي "هواوي" و"ztm" وتمثلان حوالي 40% من سوق البنية التحتية لشبكة الاتصالات في العالم و يضحّ تريليونات الدولارات في

النشاط الاقتصادي وتعتبره الولايات المتحدة أكبر التحديات التي تهدد أمنها القومي والاقتصادي .

وفي نفس السياق أعلنت المنظمة العالمية للملكية الفكرية العام المنصرم أن الصين أزاحت الولايات المتحدة عن العرش - الذي ظلت مترتبة عليه منذ إقامة تلك المنظمة قبل أكثر من 40 عاما - بعد تصدرها لطلبات تسجيل البراءات الدولية ب 58 ألفا و 990 طلبا جاءت من الصين مقارنة مع 57 ألفا و 840 من الولايات المتحدة وتعد ملكية براءات الاختراع مؤشرا مهما على قوة اقتصادا الدولة ومدى خبرتها في القطاع الصناعي .لقد انتهى الصراع الذي تحدث عنه المفكر الأمريكي صموئيل هنتجتون - في كتابه المعنون : (بصراع الحضارات) - صدر عام 1993م مع العلم بأن المستشرق الإنجليزي المتصهين برنار لويس هو من اطلق مصطلح صراع الحضارات في مجلة ذا أتلانتيك عام 1990م - والذي يقول فيه هنتجتون باختصار : أن الصراع سوف ينحصر في المستقبل بين الحضارة الغربية الرأسمالية العلمانية من جهة وبين الحضارة الإسلامية - بشكل رئيسي - وبين الحضارة الكونفوشية الصينية من جهة اخرى - بغلبة النموذج الحضاري الكونفوشوسي الإنساني وبالنقاط على الحضارة الرأسمالية المسيحية اليهودية المتوحشة ، لقد انتهت اسطورة الإنسان الأخير - الكابوي الأمريكي - الذي قصده فوكوياما في نهاية التاريخ لتبدأ حكاية التنين الصيني و لم تعد أمريكا ذلك البع المخيف - الذي تربع على قيادة العالم لمدة ثلاثة عقود - لقد تعاملت أمريكا بغرور الأرنب الذي سبقته السلحفاة الصينية في كل شي حتى في القوة العسكرية ، فقد حذرت مصادر عسكرية أميركية لصحيفة" ذي تايمز "من أن الولايات المتحدة ستخسر الحرب مع الصين في حال اندلاعها في المحيط الهادئ. و أن الجيش الأميركي يبدو غير قادر على الدفاع عن تايوان وأن قاعدة جزيرة غوام العسكرية تبدو في خطر حالياً⁽³⁾ .

وأرسلت الصين العديد من الرسائل العسكرية للولايات المتحدة تؤكد نديتها منها : العرض العسكري الصيني لقواتها العسكرية عام 2019م و الغير مسبوق على مستوى العالم وكذلك زيادة انفاقها العسكري على التسلح لتصبح الدولة الثانية بعد أمريكا . لقد أعاد صعود الصين المتسارع كتابة التاريخ من جديد كما أعلن رئيس معهد بروكنجز - القائد السابق لقوة المساعدة التابعة لحلف شمال الأطلسي والقوات الأميركية في أفغانستان - إن "الْمُنْتَصِرِينَ عَلَى أزمَة فيروس كورونا سيكتبون

التاريخ" . لقد عمدت الإدارة الأمريكية إلى ممارسة كل أنواع الضغوط على الصين لتأخير صعودها وأخرها إلغاء الحصانة السيادية للصين في المحاكم الأميركية للسماح للأميركيين المتضررين من فيروس كورونا بمقاضاة الحكومة الصينية ، ربما يكون ذلك الإلغاء هو القشة التي ستقضم ظهر التنين الصيني لخوض حرب عسكرية يتم على اثرها صعود نجم جديد في سماء الحضارة الإنسانية ، فمنذ أن انتقل ترامب إلى البيت الأبيض أراد أن يجعل من عبارة "أميركا أولاً" شعاراً إرشادياً لإدارته، وأصبحت فعلاً كذلك ، ولكن في الهرولة نحو السقوط ولن تسبقها دولة في ذلك .

كورونا هل كانت المسار الأخير في نعش الحضارة الغربية ؟

كثيرة هي الكتب التي ينتقد فيها مفكرون وفلاسفة غربيون الحضارة الغربية ، على اعتبار أن أهل تلك الحضارة أدري بشعابها وعلى سبيل المثال - لا الحصر - ينتقد الفيلسوف هربرت ماركيز في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد) إنسان الحضارة الغربية بالقول بأنه إنسان استغنى عن الحرية بوهم الحرية وأن الحرية الوحيدة التي منحته أيها الحضارة الغربية تشبه حرية العبد في اختيار اسياده فقط ولذلك وسم الإنسان الغربي بأنه ذو بعد واحد .

وقد صف روجيه جارودي كذلك في كتابه (حفاروا القبور : الحضارة الغربية تحفر قبرها) الحضارة الغربية بأنها تحفر قبرها بيدها من خلال بعض المظاهر ومنها التعامل مع الإنسان باعتباره مجرد شيء مادي ، ترس في عجلة كبيرة ، سلعة لها ثمن و يمكن أن يكون له تاريخ صلاحية و تاريخ انتهاء . و ما هو حاصل اليوم في الغرب - جراء انتشار فيروس كورونا - يثبت صحة ما قاله . فالأخبار الواردة من الغرب تقول أن أوروبا وأمريكا وعبر شركات التأمين ربما تحاور التخلص من كبار السن باعتبارهم عالية مكلفة بالنسبة لأسرهم وللدولة ولشركات التأمين ايضاً وربما كان ظهور الفيروس سبباً للتخلص منهم - خصوصاً أن عدد الوفيات في إيطاليا واسبانيا وامريكا هم من كبار السن - لأن الأطباء كانوا ينزعون أجهزة التنفس من فوق وجوه كبار السن ويعطوها للشباب وكذلك كانت تفعل المستشفيات حال استقبالها للمرضى ، فهي تفضل الشباب على كبار السن باعتبار أنهم قد اخذوا نصيبهم من الدنيا ويجب أن يرحلوا ويفسحوا المجال للشباب . وهذا التعامل هو بخلاف تعامل الشعوب الشرقية والإسلامية مع المسنين ، لقد جعل الإسلام احترام كبار السن - خصوصاً الوالدين - من ضمن تعاليمه التي

حرص على تلقينها للشباب وقرن بين عبادته والإحسان للوالدين وجعله سر السعادة في الدنيا والآخرة ، أنظروا كيف تعاملت دولة ايران الإسلامية مع أنتشار فيروس كورونا باهتمام مبالغ فيه مع كل الاعمار - وخصوصا كبار السن - رغم الحصار وشحة الإمكانيات مقابل تعامل إيطاليا واسبانيا وامريكا لتعرفوا الفرق بين الحضارة المادية الغربية وتعاليم الإسلام الراقية وهو عين ما فعلته تركيا.

لم يكن فيروس كورونا ديمقراطياً في تعامله مع الدول ولم يفرق بين أنظمة تدعي الديمقراطية وأخرى يتم وصمها بانها ديكتاتورية ولا تحترم حقوق الإنسان ، فضح كورونا كل تلك البروباغندا وأثبت أن دولة مثل الصين اكثر احتراماً لكرامة الإنسان وصحته ولا تفرق في نظامها الصحي بين مواطنيها على أساس السن كما فعلت الأنظمة التي تتشدد بحقوق الإنسان متى ما كان غريباً وابطياً وشاباً ايضاً .

لقد كشف فيروس كورونا عورة الحضارة الغربية المادية برمتها وفضح هشاشة نظامها الصحي والاجتماعي الذي يعتمد على عولمة الاقتصاد وخصصته وعرى اقتصادات كبرى تتكى على الخدمات اكثر من اتكائها على الإنتاج - وهي الدول التي قوت الشركات وأضعفت الدول نفسها فجعلت من الدولة شركة صغيرة في مهامها ومن الشركات دولاً كبيرة تقوم بكل أدوار الدولة - وأثبت أن دولاً بحجم الصين وروسيا وايران وكوبا لديها أنظمة صحية متفوقة على أنظمة دول تصنف على انها عظمى بمراحل ، وكشف أفتحة لدول صنع الإعلام حولها هالة مزيفة . تفوق نظام الدولة المركزية القوية المرتكز على أسس اشتراكية معدلة والمعتمد على قوة الأيدي العاملة المنتجة للسلع على نظام الشركات الرأسمالية المتوحشة العابرة للقارات المعتمدة على قوة رأس المال المنتج للخدمات والتي تسعى نحو الربح لأجل الربح فقط ولا قيمة للإنسان لديها . في المعلومات، تستورد الولايات المتحدة " 80 إلى 90% من لقاحات المضادات الحيوية المختلفة من الصين و " 70% من الأدوية المسكنة للألام. " (شبكة فوكس نيوز 19 آذار الجاري، نقلاً عن مجلس العلاقات الخارجية). وتستورد ايضاً أجهزة التنفس الاصطناعي والكمادات . وكم كان الفيلسوف الأمريكي - من أصل ياباني - فوكوياما مخطئاً عندما تصور في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) في بداية تسعينيات القرن المنصرم أن التاريخ قد توقف عند النموذج الليبرالي الرأسمالي الأمريكي على وجه الخصوص وأن العقل البشري وصل إلى أقصى تطوره مع ذلك النظام، وأن

الإنسان الأخير هو الكابوي الأمريكي الذي سوف يسيطر على العالم ويفرض قيمه عليه ولم يكن يتوقع أن فيروساً لا يُرى قد أنهى تاريخ النظام الرأسمالي المتوحش وجعل الكابوي الأمريكي هو الأخير فعلاً في حلبة السباق التي تصدرها الصيني والروسي والإيراني ،لقد سعت الحضارة الغربية نحو الربح المادي ،لكنها برغم ربحها خسرت الإنسان

المراجع :

- (1) ينظر : علي حرب . حديث النهايات . المركز العربي الثقافي . بيروت . ط2 / 2002م . ص 167 .
- (2) ينظر : روجيه جارودي : العولمة المزعومة ، دار الشوكاني ، صنعاء ص 235 .
- (3) ينظر _____ ر :
| <https://www.almayadeen.net/news/politics/1398603/>

النهضة اليابانية : لماذا نجحت اليابان وأخفق العرب

مقدمة :

عندما كتب شكيب أرسلان - في ثلاثينات القرن العشرين - كتابه الذائع الصيت : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ كان يرد فيه عن السؤال الذي أرسله الشيخ محمد بسيوني عمران - من جاوة بإندونيسيا - إلى الشيخ محمد رشيد رضا - صاحب مجلة المنار الذائعة الصيت حينها - مقترحاً عليه أن يُبيّن لقراء المجلة أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل وأن يُبيّن أسباب رُقي أهل أوروبا وأمريكا واليابان ، وهل يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف ؟ أحال السيد رشيد رضا الرسالة إلى الأمير شكيب أرسلان الذي رد عليها من خلال عنوان الكتاب أعلاه .

وقد ذكر ان أهم أسباب تأخر المسلمين هو الجهل الذي يجعل فيهم من لا يُميّز بين الخمر والخل وكذلك العلم الناقص عند البعض الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط ، لأن الجاهل إذا قبيض الله له مرشداً عالماً اطاعه ولم يتفلسف عليه ، بخلاف صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع أنه لا يدري ، ومن أسباب تأخر المسلمين ايضاً فساد الاخلاق - بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن والعزائم التي حمل عليها - وكذلك الجبن والهلع واليأس والقنوط من رحمة الله ، بعد ان كان المسلمون من أشهر الأمم في الشجاعة و احتقار الموت (1) .

وهو يرى أن من اكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم ، متعبراً أن آفة الإسلام الحالية هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم بدون نظر فيما هو ضار منه وما هو نافع ، وكذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغيّر شيئاً ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ، ظناً منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار وكما قال : فقد أضاع الإسلام جاحدً وجامد (2) .

وقد وقف الامير شكيب أرسلان - في كتابه السابق - عند النهضة اليابانية متسائلاً عن سر قدرة اليابانيون في احداث نهضتهم الخاصة وسر تفوقهم في ذلك على الآخرين - وخصوصا المسلمين - وهو يرى أن التمسك بالدين والعادات والتقاليد - التي تحفظ للأمة هويتها - مع الانفتاح على العلوم الغربية التي تساعد الأمم على النهوض بدون الانجراف للتغريب الثقافي الذي يُفقد الأمة هويتها وهذا هو عين ما فعله اليابانيون ومما لا شك فيه أن الديانية اليابانية لعبت دوراً هاماً في نهضة اليابان

وهي في الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لأبنائهم، فالياباني العصري قد ائتمن مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ الميل الدائم إلى الرجوع إلى ماضيه ومع التمسك الشديد بقوميته غير مجيب لنداء التغريب الثقافي ، إن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لأنه في ذلك الماضي المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامة التي لا سبيل إلى الحياة بدونها في أيامنا هذه ، لكنهم ينبذون كل تغريب ثقافي لأنهم في غنى عنه ويعودون بلذة لشعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون انهم الاعلون والافضل على الدوام من غيرهم (3) .

وسوف نحاول في هذه الصفحات أن نقارن بين النهضة اليابانية وبين النهضة المصرية - التي سبقت تجربة اليابان - من أجل الاستفادة من التجربة اليابانية في واقعنا المعاش كي ننهض علمياً كما نهضوا ونلحق بقطار الحضارة الذي لا يتوقف ونحافظ في نفس الوقت على قيمنا الإسلامية وهويتنا اليمينية الإيمانية كما حافظوا على هويتهم اليابانية .

مقارنة بين النهضة اليابانية والمصرية :

أول ملاحظة تصادفنا عند المقارنة بين النهضتين هي أن اليابان استفادت من دراسة التجربة المصرية التي بدأت في عهد محمد علي باشا وخصوصاً بعد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م - بقيادة نابليون وهزيمتها على يد القوات البريطانية في معركة أبي قير قرب الإسكندرية - وتقرّد محمد علي بحكم مصر منذ عام 1805م ، فقد ارسل أول بعثة علمية إلى أوروبا عام 1808م وبنى أول كلية للهندسة في مصر 1816م وأرسل أول بعثة علمية مكونة من 40 طالباً إلى فرنسا عام 1818م وبنى أكثر من خمسين مدرسة عصرية وأدخل زراعة القطن طويل التيلة إلى مصر عام 1820م وخطط لبناء أول كلية للطب في مصر - وفي العالم العربي - عام 1826م ، وقد أدخل السكة الحديد والقطارات إلى مصر قبل اليابان والسويد وبولندا وقبل الكثير من دول العالم التي توصف اليوم بأنها متقدمة ويكفي ان نعلم أن مصر كانت تقرض بريطانيا من العملة الصعبة وأن متوسط دخل الفرد في مصر عام 1913م من الناتج المحلي الاجتماعي أعلى بقليل من اليابان وكان نصيب الفرد من التجارة الخارجية المصرية يساوي ضعف نصيب الفرد في اليابان ، ولكل ذلك حاولت اليابان الاستفادة من تلك التجربة من خلال ما يلي:

- رفضت القروض الاجنبية باعتبارها وسيلة ابتزاز و إخضاع وتحكم في سياسات ومصير الشعوب .

- رفضت اقتباس الثقافات الغربية التي تقود إلى التغريب الثقافي في المأكل والملبس والسكن والتعليم والتخاطب اليومي (4) .

وبذلك نجحت حركة التحديث في اليابان في اقتباس تكنولوجيا الغرب فقط حين عملت على توطينها (بيننتها) وتوظيفها واستيعابها وتطويرها دون أن تغادر أصالة العادات والتقاليد الاجتماعية المتوارثة .

يرى البعض أن تفوق تجربة النهضة اليابانية على المصرية له عدة اسباب منها : أن موقع اليابان في طرف العالم القديم قد ساهم في الحد من خطر التدخل الخارجي فيها ، وكذلك التماسك الاجتماعي الموجود بين أفراد المجتمع الياباني الذي لا مثيل له على مستوى العالم والموارد البشرية الأكثر تقدماً والتوجه المبكر نحو النمو الاقتصادي بالإضافة إلى قدر كبير من حب الاستطلاع لدى الشعب الياباني ووجود زعامة حكيمة على نحو غير عادي يبدو أنها كانت ذات براعة خارقة للعادة في اتخاذ الاجراءات الاقتصادية السليمة (5) .

ويحق لنا أن نتساءل : لماذا نجحت اليابان في إحداث نهضتها - على كل المستويات - ولماذا أخفقت مصر ومعها العالم العربي في ذلك على الرغم من تشابه المقدمات لكن النتائج كانت مختلفة ؟
سوف نحاول أن نجيب عن هذا السؤال فيما يلي :

المعجزة اليابانية بأي معنى ؟

كثيراً ما يتكلم الناس عن المعجزة اليابانية التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية وتمثلت بالتفوق العلمي والتكنولوجي والصناعي، والمسألة لا دخل لها بالمعجزات - في زمن انتهت فيه المعجزات - بقدر أن شعباً عرف هويته ، من هو ؟ وماذا يريد ؟ فاليابان بلد فقير في موارده الطبيعية ، فهو يستورد معظم المواد الخام الأولية ومصادر الطاقة من الخارج - حتى الملح كان يتم استيراده من اليمن - لكنه يملك الرأسمال البشري وهو الإنسان الياباني ، ويملك الرأسمال الاجتماعي وهي العلاقات بين افراد المجتمع القائمة على الثقة والمودة والاحترام والعمل لصالح المجموع وليس الأفراد وتقدير كبار السن والارتباط بالأسرة، وكذلك العادات والتقاليد والثقافة اليابانية التي ترسخ تلك القيم وتحافظ عليها. وإذا أردنا أن نفهم ماذا حدث في اليابان يجب أن نعود إلى ما كتبه المفكر الجزائري مالك بن نبي - في كتابه شروط النهضة - وقد وضع ثلاثة مكونات رئيسية لأي نهضة يمكن أن يكون لها أثراً على

حياة الشعوب وهي : الإنسان ، التراب (أو الأرض) ، الوقت ، وتلك العوامل الثلاثة هي التي تصنع الحضارة لأي أمة من الأمم وتحضر الشعوب ، والحضارة التي نعنيها هي المقصودة في قول ابن خلدون في كتابه المقدمة : (هي سر الله في حصول العلم والصنائع) (6) .

ما الذي فعله اليابانيون :

هناك ثلاث ركائز يتميز بها الشعب الياباني عموماً - وخصوصاً محاربي الساموراي* منهم - وهي : الحكمة واليقظة والشجاعة . والإنسان الياباني هو أساس النهضة في بلاده وعمادها، والثقافة اليابانية هي من خلقت ذلك الإنسان، فقد حرص الياباني على نقل التراث الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي من الريف إلى المدينة ، من الحقل إلى المصنع ، من الكوخ إلى ناطحات السحاب ، من المحراث إلى الكمبيوتر وأهتمت الدولة بالتعليم ووجهته الوجه العلمية الصناعية المطلوبة للتنمية الوطنية ، فتحول الياباني بفعل الثقافة اليابانية والتربية الأسرية والتعليم المدرسي والجامعي ، في غضون سنوات قليلة من صياد أسماك ، وعسكري شرس يعيش على نهب خيرات المستعمرات خارج بلاده ، إلى إنسان يعمل بصمت مثل النحلة وهو يعلم تماماً ماذا يعمل .

لقد طبق الإنسان الياباني الشروط الثلاثة للنهضة - دون أن يدرك أنه يفعل ذلك - وأمتلك القيادة التي يستحقها والتي كان لها الفضل في اتخاذ الإجراءات المناسبة في الماضي كي تصل اليابان إلى التقدم الذي وصلت إليه اليوم . والإنسان الياباني كان جاهزاً للتحضر من خلال إيمانه بنفسه وثقته بقدراته على إحداث التغيير الذي يُريد الوصول إليه وكان متفائلاً بقدرته من ذلك - مثلما كان واثقاً بقيادته - ومن خلال احترامه لقيادته ولتنفيذ كل التوجيهات التي تصدر منها ، تلك القيادة التي عرفت هويتها وأخلصت للأرض وللشعب ولأمجاد وقيم محاربي الساموراي . فقد تعلم اليابانيون اللغة الانجليزية والهولندية مبكراً - في مطلع القرن السادس عشر - لنقل العلم والتكنولوجيا في حين ظل لسانهم يابانياً وثقافتهم يابانية خالصة دون تأثر بثقافات الدول التي اتقنوا لغاتها " لقد شدد عدد كبير من الباحثين اليابانيين على ان المصلحين في اليابان قد أولوا مسألة الحفاظ على الثقافة التراثية إبان عملية التحديث الأهمية القصوى في برامجهم الإصلاحية واعتبروا أن التحديث الذي

• الساموراي : كلمة يابانية تعني أن تخدم ، وهم طبقة من المحاربين الذين يعتبرون أنفسهم خدماً للفضيلة وللقيم والعادات والتقاليد اليابانية وللإمبراطور وللشعب الياباني .

يقود إلى التفريط بالثقافة التراثية هو أقصر الطرق للتغريب ولا يقود
أبداً إلى الحداثة الحقيقية " (7)

لقد أحب الياباني أرض وطنه وأخلص لتراثها وكان يُقدس وطنه - كما
يقدر الامبراطور - وما زالت الأجيال المتعاقبة في اليابان تُلقن في
البيوت والمدارس والجامعات والمصانع والمزارع والثكنات العسكرية (
نظرية الكوكوتاي) أو الأرض اليابانية المقدسة التي لم تطأها أقدام
الغزاة منذ فجر التاريخ - ولا يجوز أن تطأها تلك الأقدام - لأن فيها
امتهاناً لكرامة كل ياباني حين يرى غزياً اجنبياً يحتل أرضه المقدسة
فيقاتل عن أرضه حتى الموت كواجب ديني ووطني في آن ، ولنتذكر أن
اليابان لم تستسلم في الحرب العالمية الثانية الا بعد أن ضربهم
الأمريكيون بقنبلتين نوويتين - في هيروشيما وناجازاكي - وبعد أن دعا
الامبراطور المقدس بصوته الشعب الياباني للاستسلام حتى لا تدمر
اليابان وعلى أمل نهوض جديد لم يتأخر أكثر من عشر سنوات (8) .
وكان الياباني كذلك مدركاً ايضاً لقيمة الوقت وأهمية استغلاله في
إحداث النهضة التي يصبو اليها ، وتكمن أهمية الوقت واستشعاره في
أنه نقل اليابان من ضيق المكان والمساحة إلى وسع الزمان ومن ضيق
الجغرافيا إلى سعة التاريخ ومن ضيق الزراعة إلى وسع الصناعة
والأهم من كل ذلك أنه نقلها من ضيق العمل الفردي الناقص إلى سعة
العمل الجماعي المتكامل وكان سر معجزة اليابان وتفوقها أنها علت
على المكان بالزمان واستغلال الوقت الاستغلال الامثل ، لقد أدرك
اليابانيون أن الفعل الحضاري يقوم على العودة إلى الأصل وبدأ الجديد
وبحسب تعبير كونفوشيوس : العودة إلى الأصل بطريق الامام .

كيف نهضت اليابان ؟

بالعودة إلى التاريخ و إلى الماضي القريب ، يمكن فهم سر تفوق
الشعب الياباني في الوقت الحاضر ، باعتبار ما حصل كان مقدمة
منطقية كانت نتائجها منطقية ايضاً ومتسقة مع المقدمات وكما يقول
المثل الألماني : إذا كانت النتائج صحيحة فمعنى ذلك أن كل شيء قد
سار على ما يُرام .

شهدت اليابان مرحلتين هامتين في تاريخها الحديث هما :

- 1- مرحلة التوحيد القومي في دولة قوية (1568م - 1600م)
- 2 - مرحلة توكو غاوا (1598 - 1867م) نسبة إلى أسرة من
المحاربين الساموراي التي ارتقى زعمائها إلى قيادة الحكم المركزي

المعروف بإسم الشوغون - وتعني الحاكم العام للمقاطعات اليابانية - والذي أسس حكماً وراثياً استمر 265 عاماً وعرفت إدارتهم الحكومية بإسم باكافو . وقد بدأ اتصال الأوروبيون باليابان عام 1541م عندما نزل بعض البحارة البرتغاليون - في ميناء جينغوجي الياباني - وقد اعتمدوا على ثلاث طرق لتوسيع نفوذهم في اليابان وهي : التجارة وبيع الأسلحة والتنصير وقد شرعوا بالعمل على نشر المسيحية بين السكان المحليين ، وزاد تأثير المسيحية خصوصاً بعد إن اعتنقها عدد من حكام المقاطعات - خصوصاً من قادة المحاربين الساموراي - وكان أحد الأسباب التي دفعت حكام اليابان إلى تصفية انصارها بعد تحولهم إلى قوة سياسية استخدمها اطراف النزاع على السلطة كمدخل للتعاون مع قوى خارجية من البرتغاليين والإنجليز والألمان والأسبان ، وقد عمل الأوروبيون على القضاء على تعاليم ديانة الشنتو اليابانية التي تقدر التقاليد ومنها احترام كبار السن عموماً وخصوصاً الاجداد والآباء .

مما حدا بحكام اليابان إلى اصدار قرار بمنع سفر اليابانيين للخارج عام 1636م وتنفيذ عقوبة الإعدام لأي ياباني يبقى في الخارج خمسة أعوام والإعلان عن حظر الديانة المسيحية رسمياً عام 1637م ومنع اتصال السكان المحليين بالأجانب إلا عن طريق الدولة ومنع تداول اللغات الأجنبية وعدم ترجمة نصوص منها .

إدراك الشعب الياباني خطر التدخل الخارجي :

دخلت اليابان في عزلة طوعية عن العالم الأوربي حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وهنا تكمن خصوصية التجربة النهضوية اليابانية في إحساس الشعب الياباني المبكر بخطر التدخل الاجنبي على بلادهم ، بعد أن قام مبشرون مسيحيون بتنصير ما يزيد على ثلاثمائة الف ياباني - بعضاً منهم من قادة الساموراي - وهذه نسبة مهمة قياساً على عدد السكان في ذلك الوقت - منتصف القرن السادس عشر الميلادي ومطلع القرن السابع عشر - لذلك اتخذت الحكومة اليابانية قراراً صارماً بمنع الديانة المسيحية فيها عام 1637م وقامت بحرب تصفية دموية ضد معتنقيها من اليابانيين واغلقت الموانئ البحرية امام التجارة الأوربية ودخلت اليابان في عزلة طوعية دامت أكثر من قرنين - حتى اواسط القرن التاسع عشر - وكان خوف سكان الجزر اليابانية من الاحتكاك بالعالم الخارجي - وخصوصاً الأوروبيون - مبرراً ، خصوصاً بعد أن ظلوا في عزلة طبيعية لقرون طويلة ، وذلك يُفسر قرارهم بالانكفاء على الذات خوفاً من السقوط تحت السيطرة الاجنبية ، فقد شعروا أنهم

يفتقرون للتكنولوجيا الغربية الحديثة ، والانفتاح على تلك العلوم دفعة واحدة يمكن أن يقود أبنائها إلى الانبهار بالغرب ، وقد برز اثر ذلك الانبهار لديهم مع ادخال البرتغاليون لصناعة الاسلحة النارية اليهم في اواسط القرن السادس عشر وما أعقبه من عملية تصنيع واسعة لتوليد اجيال متغربة تمهد الطريق لارتباط بعض ابنائهم بالغرب على حساب الانتماء لليابان .لذا فضلت حكومة الشوغون المواجهة الديموية بتوجيه الضربة القاضية إلى المتنصرين والمتغربين في داخلها خوفاً من تحولهم إلى ركائز محلية للسيطرة الخارجية ، فدمرت بسرعة ما بثته الإرساليات التبشيرية خلال قرن كامل .

تجدد الإشارة إلى ان حكومة (توكو غاوا) حتى في ظل سياسة العزلة وخلالها لم تصم أذانها عما يحدث في الخارج ، بل تم الحفاظ على قناة اتصال مع العالم الخارجي عبر مرفأ ناكازاكي الصغير ومع أن الشعب أبقى بشكل عام جاهلاً لما يحدث خارج شواطئ اليابان ، فقد توفر للنخبة الحاكمة وطبقة صغيرة من المفكرين معبراً إلى العلوم الأجنبية ، تشربوها وناقشوها فيما بعد في كتاباتهم⁽⁹⁾ .

وذلك يعني أن تلك العزلة لم تكن عزلة عن العلم الغربي وإنما كانت عزلة اختيارية عن الثقافة الغربية التي تخلق التبعية لدى معتققيها .

ويمكن تلخيص التجربة اليابانية باختصار في اربعة محاور :

1 - تقديس الإمبراطور: من المعلوم أن دخول الحداثة في اليابان في العام 1868م ترتبط بعودة الامبراطورية مع عهد الامبراطور مييجي (تعني الكلمة باليابانية : الحاكم المستنير) ، عندما اقتحمت مجموعة من العسكر قصر الشوغون (حاكم المقاطعات و كبير النبلاء العسكريين) وأعلنت عودة الامبراطور الى الحياة السياسية اليابانية ، وتعتبر إعادة الماييجي " نقطة تحول فاصلة في التاريخ الياباني ، فعلى الرغم من أن الأحداث الفعلية لعام 1868م لم تكن أكثر من انتقال للسلطة ضمن الطبقة الحاكمة القديمة ، فإن هذه العملية الأكثر شمولاً والتي يطلق عليها (إعادة الماييجي) أدت إلى وضع حدٍ لهيمنة طبقة المحاربين وتحول الهيكلية اللامركزية للعهد الإقطاعي الحديث في عصوره المبكرة إلى دولة مركزية تحت سلطة الملك التقليدي والذي أصبح الآن ملكاً عصرياً " (10) .

فالإنسان الياباني ينظر الى امبراطور الياباني بتقديس مبالغ فيه باعتباره - بحسب اعتقادهم - من نسل الآلهة المنحدرة من سلالة الشمس وقد رفض حكام اليابان وشعبها مبدأ المساواة بين الحاكم والمحكومين

بحسب المفهوم الاوربي الذي روج له الأوربيون في اليابان واعتبروا أنه يهدم ركناً أساسياً في ديانة الشانتو اليابانية القديمة وفي التقاليد العريقة لليابان ، تلك التقاليد التي تحترم كبار السن وكل قادة الساموراي وابطارة اليابان حتى اليوم .

2- تقديس الوطن (التراب أو الأرض) : الثقافة اليابانية جعلت من الوطن بالنسبة للإنسان الياباني روحه التي يعيش بها ولها ومن اجلها، ورسخت مبدأ الارتباط بالأرض وتقديسها " أصبحت الوطنية مذهباً بالنسبة لليابانيين كما اجتهدوا حتى صيروا بلدهم واحداً من بين الدول الكبرى في العالم " (11) .

لقد رفعت الديانة الشنتوية - ديانة اليابان الرسمية - مرتبة الأرض اليابانية إلى درجة القداسة لأنها أرض الالهة ، وإمبراطور اليابان كان - ولا يزال حتى اليوم - يُعتبر من سلالة الآلهة وبالتالي فإن من واجب كل ياباني الموت في سبيل أرضه وإمبراطوره الذي هو رمز اليابان ، لأن أرض اليابان مقدسة بالنسبة لهم ولا يجوز أن تطأها أقدام الغزاة ولا يستقر عليها أجنبي ويكفي التذكير بأن نظرية الكوكوتاي (تعني قدسية الأرض والامبراطور) شكّلت حجر الزاوية في الفكر السياسي الياباني الحديث والمعاصر (12) .

وبناءً على ما سبق فالياباني يرفض تماماً شراء أي منتج غير ياباني ، ويفضل استعمال السلعة اليابانية حتى ولو كانت أغلى سعراً من المنتج الأجنبي - حتى إذا كانت بمواصفات رديئة مقارنة بالسلعة الأجنبية - ويكفي أن نعلم أنه يفضل شراء السيارة اليابانية على السيارة الأمريكية ، رغم أن الأخيرة معروضه بنصف سعر السيارة اليابانية ، لأنه يعتقد أن أمواله سوف تذهب الى خزانه الدولة التي ضربته بالقنبلة النووية حال شرائه لمنتجها .

3 - تقديس العمل واحترام العامل : العمل مقدس ، والعامل في أثناء قيامه بعمله ، يشعر أنه يؤدي واجبا دينياً وإنسانياً وأسريراً وأخلاقياً ووطنياً ولذلك فإن الشعب الياباني هم أقل شعب على وجه الأرض يأخذ إجازات - أو فترات راحة - من العمل وينعكس تقديس الياباني للإمبراطور الى مجال عمله فيقدسه ويحترم أرباب العمل ، وهم بدورهم يحترمون العامل ويقدرونه ويقدررون عمله ، لأنه رأسمال اليابان و ثروتها الحقيقية ، فالعامل والموظف في اليابان هو صاحب العمل وهو مالكة الحقيقي ، فلا يوجد إجراء لديهم بل شركاء في العمل .

واخلاص الياباني لعمله يوازي اخلاصه لزوجته وعائلته ، فالعامل الذي ينتقل في أكثر من مصنع أو شركة - وهذا نادر الحدوث عندهم - يسميه المجتمع العامل الداعر.

4 - تقديس الجماعة : نشأ المجتمع الزراعي في اليابان على مبدأ أن كل الأيدي هي في العمل يد واحدة والخطوة التي يخطوها مائة فرد منهم أهم من مائة خطوة يخطوها فرد واحد وهذا يعبر عن روح التعاون السائدة بينهم ، فهم يعملون بروح الفريق الواحد ، أي : العمل للجماعة وبها ومن اجلها ، فالياباني لا يمكن أن يأكل لوحده أو يجلس لوحده أو يعمل بمفرده أو حتى يسافر لوحده ، بل يتم كل ذلك في إطار الجماعة ، لأنه يعتبر نفسه ناقصاً والآخرين مكملون له ، وهم يأخذون قراراتهم بشكل جماعي (من القاعدة الى القمة) ، وهم يأخذون وقتاً طويلاً في التفكير في أي قرار لكنهم متى اتخذوا القرار يكون تنفيذهم له بأسرع وقت ممكن . هل وضحت الرؤية الآن وعرفنا سر تفوق اليابان وسر تخلف المسلمون وخصوصا العرب منهم ؟

قائمة المراجع :

- (1) ينظر : شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم . مراجعة : حسن تميم . مكتبة الحياة ، بيروت . (د - ت) ص 75 - 77 .
- (2) ينظر : المرجع السابق ، ص 88 .
- (3) ينظر : المرجع السابق : ص 92 .
- (4) ينظر : مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية ، عالم المعرفة الكويتية عدد 252 ، ديسمبر 1999 م . ص 12 و ص 16 ا ص 17 .
- (5) ينظر : المرجع السابق ص 17 .
- (6) ينظر : مالك بن نبي : شروط النهضة . كتاب الدوحة ، قطر . (د - ت) ص 16 .
- (7) ينظر : مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية . ص 22 .
- (8) ينظر : المرجع السابق ص 13 .
- (9) ينظر : نهضة اليابان : ترجمة : نديم عبده وفواز خوري ، شركة المطبوعات ، بيروت ، ط 2 / 1996 م . ص 234 .
- (10) المرجع السابق . ص 21 .
- (11) ايتشروا كاوازاكي : اليابان بدون نقاب . تر : عبدالله مكي . دار الراقد ، لندن . (د - ت) ص 163 .
- (12) ينظر : مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية . ص 267 . سابق .

قضايا إسلامية معاصرة صفحة القرن عربية الاقتصاد قبل حسان السياسة

مقدمة :

معلوم لكلٍ ذي لب أن الغرب الاستعماري - وخصوصاً بريطانيا - هو من زرع دولة الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي عبر عدة خطوات أراد من خلالها أن يتخلص من اليهود في أوربا لأنهم يشكلون خطراً وجودياً على الشعوب الأوروبية ، وقد بدأ التمهيد لذلك من خلال اتفاقية سايكس بيكو عام 1916م والتي تقاسمت فيها بريطانيا وفرنسا تركيا الامبراطورية العثمانية - أو الرجل المريض كما يسمونها - المهزومة في الحرب العالمية الاولى ، في بلاد الشام والهلل الخصب - كانت فلسطين من نصيب بريطانيا - وقد شكلت تلك الاتفاقية أولى مراحل الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، لأنها مهدت الطريق لوعد بلفور - في 2 نوفمبر 1917م - الذي وعد فيه وزير خارجية بريطانيا (آرثر بلفور) اليهود بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم - على اعتبار أن فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض - وخانت بريطانيا وعودها للعرب - الذين حاربوا معها تركيا - بمنحهم الاستقلال عند زوال الحكم التركي ، وعندما احتلت الجيوش البريطانية فلسطين في سبتمبر 1918م ، كان عدد اليهود المتواجدين فيها 56 الف نسمة ، أي 9% من مجموع السكان ، سهلت بريطانيا هجرة اليهود - بالسر وبالعلن - من كل دول العالم إلى فلسطين ، وعند انتهاء الانتداب عام 1948م أصبح عدد اليهود 605 ألف يمثلون 30% من مجموع سكان فلسطين حينها ، وقد عملت بريطانيا على الضغط على عصبة الامم من اجل اصدار قرار الانتداب البريطاني على فلسطين وفعلاً صدر ذلك القرار من المنظمة الدولية ، لقد كان صك الانتداب البريطاني يفوق في أهميته وعد بلفور ، لأن الأخير كان تصريحاً من وزير مسئول في الحكومة البريطانية ، أما صك الانتداب فهو وثيقة دولية ملزمة شاركت الدول الكبرى في اصدارها في اطار منظمة دولية هي عصبة الامم حينها ، وبموجب تلك الوثيقة أخذ الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية أهم خطوة لقيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وقد تحقق لها ذلك يوم انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين في 14 مايو 1948م فأعلن اليهود في اليوم التالي مباشرة قيام دولة الكيان الصهيوني الغاصب - واعترفت بها أمريكا بعد 11 دقيقة من اعلانها ، وهو ما عُرف لدى الفلسطينيين والعرب بيوم النكبة ، فقد تم طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين

وتهجيرهم من 531 مدينة وقرية فلسطينية وخلفت النكبة 900 الف لاجئ فلسطيني في دول الجوار العربية، وقد بدأت الولايات المتحدة الامريكية من خلال اللوبي الصهيوني تحشيد الدعم والتأييد السياسي والعسكري والمادي لذلك للكيان المحتل ، بداية من خطة الرئيس الأمريكي هاري ترومان عام 1955م وليس نهاية بخطة الرئيس ترامب المسماة بصفقة القرن . بعد ذلك جاء العدوان الثلاثي - أو حرب السويس كما تسمى - على مصر بقيادة فرنسا وبريطانيا واسرائيل بسبب تأميم الزعيم جمال عبدالناصر لقناة السويس يوم 26 يوليو 1956، ودعمه للثورة الجزائرية واستمرت العريضة الصهيونية وزادت عتواً ونفوراً عندما هاجمت الطائرات الحربية الاسرائيلية - وبدعم من الطائرات البريطانية والامريكية - مصر وسوريا والأردن في 6 يونيو (حزيران) عام 1967م - وهو ما عُرف بحرب الأيام الست أو النكسة كما سماها العرب - واحتلت دولة الكيان الغاصب سيناء في مصر والضفة الغربية وغزة في فلسطين ومرتفعات الجولان في سوريا والحقت بتلك الدول هزيمة بدأ معها الجيش الاسرائيلي للعالم بأنه جيش لا يقهر وتؤكد الفلسطينيون من عدم قدرة العرب على تحرير اراضيهم - خصوصاً بعد تلك الهزيمة - وبدوا في تنفيذ عمليات عسكرية تستهدف الكيان الصهيوني من خلال منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات .

خاضت القوات المصرية بعد تلك الهزيمة القاسية ما عُرف بحرب الاستنزاف واستمر عبدالناصر في إعادة تجهيز الجيش المصري لمواجهة اسرائيل ، وهذا ما تم فعلاً في 6 اكتوبر 1973م عندما قامت القوات المصرية والسورية بمهاجمة القوات الاسرائيلية في الجولان وسيناء و استطاعت القوات المصرية عبور خط برليف من ضفة سيناء الغربية إلى الضفة الاخرى واسقطت الدفاعات الجوية السورية اكثر من 90 طائرة فانتوم اسرائيلية بواسطة صواريخ سام 5 الروسية واعادت حرب اكتوبر بعضاً من كرامة الجيوش العربية التي فقدتها عام 1967م ، فقد استطاعت سوريا تحرير جزء من أراضي الجولان واستعادة مدينة القنيطرة واستطاعت مصر تحرير قناة السويس وشبه جزيرة سيناء.

واستمرت العريضة الصهيونية دون توقف ، ففي يوم 14مارس 1978 قامت القوات الإسرائيلية بغزو جنوب لبنان - حتى نهر الليطاني - رداً على العمليات التي كانت منظمة التحرير الفلسطينية تقوم بها ضد إسرائيل منطلقاً من لبنان ، كان الهدف من الغزو خلق منطقة عازلة بعرض 10 كيلومتراً داخل الأراضي اللبنانية وبطول الحدود

اللبنانية - الفلسطينية ، وسرعان ما سيطرت إسرائيل على 10% من جنوب لبنان . وبحلول شهر مايو 1978 انسحب الكيان الغاصب من معظم الأراضي التي احتلتها من جنوب لبنان باستثناء منطقة سمّاهما الصهاينة "منطقة أمنية" تراوح عرضها ما بين 4 و 12 كلم على طول الحدود الجنوبية للبنان وثبتت إسرائيل جيش لبنان الجنوبي العميل لها بقيادة سعد حداد على طول الحدود، ووصلت العريضة الصهيونية حداً لا يمكن وصفه ، ففي 6 يونيو 1982 بدأت إسرائيل غزو لبنان من حدودها الجنوبية - لضرب معقل منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في بيروت الغربية - وفي غضون بضعة أيام تستولي القوات الصهيونية على مدن الجنوب الهامة مثل صور وصيدا، لتدخل بعد ذلك بيروت الشرقية بدعم ضمني من القادة والمليشيات المارونية ، كان هدف الحكومة الاسرائيلية من ذلك الغزو هو وصول القوات الإسرائيلية إلى عمق 40 كم في الأراضي اللبنانية للقضاء على معقل منظمة التحرير الفلسطينية وخلق "منطقة أمنية موسعة" بحسب زعمها ، تجعل شمال فلسطين المحتل خارج مدى صواريخ منظمة التحرير . كانت أهم الاحداث التي رافقت الغزو الصهيوني لبيروت ، اقتحام القوات اللبنانية - العملية لإسرائيل - مخيمي صبرا وشاتيلا في السادسة مساءً من 16 سبتمبر - من نفس العام - وقتلت ما يقرب من 3500 فلسطيني بمساعدة الجيش الإسرائيلي الذي كان يحاصر المخيمين والذي كان يشعل القنابل المضيئة في السماء ليتمكن مقاتلي القوات اللبنانية من الرؤية طوال الليل. كان شارون وقادة الجيش الإسرائيلي يتابعون المجزرة من على سطح مبنى سفارة الكويت المطل على المخيمين. وفقاً للتقارير الإسرائيلية لم يكن وسط الضحايا أيّاً من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية . بقيت دولة الكيان الغاصب مسيطرة على المنطقة الحدودية في جنوب لبنان حتى تمكن حزب الله في 25 مايو عام 2000 من ايقاف العريضة الصهيونية وارغامها على أن تنسحب فجأة تاركة أعضاء جيش لبنان الجنوبي العميل، حيث فرّ بعضهم إلى إسرائيل واعتقل حزب الله الباقيين منهم وقدمهم للسلطة اللبنانية حيث تمت محاكمتهم.

بعد ذلك شنت إسرائيل عدوانها الغاشم على لبنان في تموز عام 2006م بحجة استعادة جنودها المخطوفين والتخلص من صواريخ حزب الله ، الا ان صمود الحزب قرابة الشهر واستمراره بضرب الصواريخ على إسرائيل واعطاب أكثر من 130 دبابة ميركافا ، وضربه المدمرة ساعر

في البحر الأبيض وأثبتت تلك الاحداث أن اسرائيل فشلت في عدوانها وأن حزب الله حقق نصراً واضحاً في تلك المعركة من خلال اقالة رئيس الوزراء يهود أولمرت وإقالة وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان كما أوضح الصهاينة في تقرير فينوجراد عن ذلك العدوان .

البذور التاريخية لصفقة القرن :

لم يظهر مصطلح صفقة القرن فجأة على المسرح السياسي العربي ولم يكن اختراعاً عبثياً لصهر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب (جاريد كوشنر) وإنما هو مصطلح جديد في شكله قديم في مضمونه وهو تحوير وتطوير وتوفيق وتلفيق لعدة اقتراحات امريكية خاصة بعملية السلام بين الفلسطينيين والكيان الصهيوني ، بدأ التفكير فيها عام 2005م غداة الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة وقد بدأ فعلاً الحديث عن ذلك السلام المزعوم عبر عرّاب السياسة الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر وتم قطف أولى ثماره النيئة في منتجع كامب ديفيد عام 1978م عندما وقع أنور السادات اتفاقية سلام مع ملاحم بيجن برعاية الرئيس الأمريكي جيمي كارتر . وبحسب وجهة نظر الباحث ، فقد بدأت صفقة القرن فعلاً من خلال ما عُرف بخطة الرئيس الأمريكي هاري ترومان عام 1955م والتي حاول فيها أن يُعري ويُقتع قادة بعض الدول العربية بالمال كي يقبلوا اللاجئين الفلسطينيين على اراضيهم ومنحهم جنسيات البلدان المتواجدين فيها من أجل ألا يعودوا إلى فلسطين وكي لا يطالبوا بأراضيهم المحتلة عام 48م ، لكن وجود المد القومي الناصري ووجود شخصية الرئيس جمال عبدالناصر المؤثرة على معظم الزعماء حينها حال دون تحقيق تلك الخطة الخبيثة التي أرادت أن تُميت حق العودة للاجئين الفلسطينيين .

وبعد انتصار الكيان الصهيوني الغاصب في عدوانه عام 1967م نشر المؤرخ والمفكر الصهيوني (برنارد لويس) مقالاً يبشر فيه بالشرق الاوسط الجديد الذي يستوعب الكيان الصهيوني في اطاره ، و في بداية سبعينيات القرن الماضي تكلم الرئيس الامريكي نيكسون وكتب مقالات عن الشرق الاوسط الذي تريده أمريكا كنفيز للفكرة القومية العربية وتسمية الوطن العربي الواحد من المحيط إلى الخليج ، فوجود اسرائيل في قلب الوطن العربي وفي المنطقة التي تفصل اسيا عن أفريقيا لن ينظر اليه باعتباره احتلالاً في ظل مقولة الشرق الاوسط الجديد .. وقد كانت مقولة الشرق الأوسط الجديد خديعة الغرض منه تمرير الأجندة الصهيونية وجعل الكيان المحتل يبدو جزءاً من المنطقة .

خديعة الشرق الاوسط الجديد :

وقد طور برنارد لويس مصطلح الشرق الاوسط الجديد الذي ظهر في مقالاته عام 1968م واخرجه في كتاب يحمل نفس الاسم في نهاية ثمانيات القرن الماضي ، اما الحدث الأبرز فكان ظهور كتاب الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز عن الشرق الاوسط الجديد - ترجمه البعض بالشرق الاوسط الكبير - عام 1993م متناولاً فيه الرؤية الصهيونية للنظام الاقليمي الذي ينبغي أن يقوم في هذه المنطقة - حسب زعمه - تتضمن تلك الرؤية العوراء التعاون في المجالات الاقتصادية والامنية وقضايا المياه والسياحية واللاجئين وبحسب كلامه أن الشرق الاوسط الكبير سوف يبني من خلال استثمار المال الخليجي وابتكارات العقل الصهيوني والعمالة المصرية المدربة.

وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية خطواتها الجادة في سبيل إنهاء القضية الفلسطينية من خلال دعوتها ورعايتها لمؤتمرات السلام المزعومة التي تدعو إلى التطبيع مع العدو الصهيوني وإغلاق ملف القضية الفلسطينية بشكل نهائي من خلال دعوتها إلى إحلال السلام مقابل اعادة الأراضي الفلسطينية المحتلة في العام 67م وفرض حل الدولتين ، وذلك من خلال مؤتمر مدريد الدولي للسلام الذي انعقد في اسبانيا في 30 اكتوبر 1991م تحت عنوان الأرض مقابل السلام لكن الشعب الفلسطيني لم يحصل على السلام الموعود ولم تعد إليه أرضه المغتصبة . وقد انتشرت فكرة السوق الشرق أوسطية عقب مؤتمر مدريد للسلام بين الفلسطينيين والكيان الغاصب الذي رعته أمريكا .

بعد ذلك دعت أمريكا إلى مؤتمر دولي في اوسلو - في 20 اغسطس 1993م وهو ما عُرف حينها بغزة أريحا أولاً - وحاولت الولايات المتحدة أن تستفرد إسرائيل بفلسطين من خلال عقد اتفاقيات سلام منفردة مع الدول العربية كلاً على حده وهو ما حصل مع الأردن من خلال اتفاقية وادي عربة في نفس العام . وفي القمة العربية في بيروت عام 2002م طرح الملك السعودي عبدالله بن عبدالعزيز المبادرة العربية للسلام بين الفلسطينيين والكيان الصهيوني الغاصب تتضمن حل الدولتين : الفلسطينية والصهيونية على ان تكون القدس الشرقية عاصمة للدولة الفلسطينية ، وتتضمن الخطة المقترحة اعادة الاراضي العربية المحتلة عام 1967م على أن تعترف الدول العربية بالكيان الغاصب وتطبع العلاقات الدبلوماسية مع ذلك الكيان بعد ذلك .

لكن الأيام اثبتت للمتابعين أن الكيان المحتل لا يؤمن بالسلام مطلقاً .

بداية ظهور مصطلح صفقة القرن :

قد تردد مصطلح صفقة القرن خلال عرض رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أولمرت في بدايات عام 2006م على الرئيس الفلسطيني محمود عباس - وهو ما عُرف حينها بتفاهمات أولمرت وعباس - وما سرّبته الصحافة الإسرائيلية من أن تلك التفاهمات عبارة عن اتفاقيات سوف ترى النور بُعيد الانتخابات الإسرائيلية وما ينتج عنها ، لكن رياح تلك الانتخابات أنت بما لا تشتهيهِ سُنن أولمرت التي أغرقتها هزيمته في حرب تموز صيف ذلك العام مع حزب الله اللبناني - وهي الهزيمة الفضيحة التي تحدث عنها تقرير فينوجراد لاحقاً - وبمجيء إدارة الرئيس أوباما عام 2009م بدأ وزير خارجيته جون كيري زيارته المكوكية لعواصم الدول العربية ذات العلاقة كمصر والأردن والسعودية مبشراً بالخطة الاقتصادية في اطار السوق الشرق اوسطي التي تم الترويج لها سابقاً . وظلت تلك الاتفاقيات طي الكتمان إلى وقت عودة مصطلح صفقة القرن بمعناه الحالي في 20 سبتمبر 2017م عندما تم الإعلان الفعلي عن صفقة القرن مع اجراء تعديلات جوهرية تمثل جُلّها وجهة النظر الإسرائيلية . وتأكّدت تلك الصفقة المشؤمة من خلال القرار الذي أصدره الرئيس الامريكى (دونالد ترامب) في يوم الاربعاء 5ديسمبر 2017م والقاضي باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل وبنقل السفارة الامريكية إليها ، وهو يخالف كل القرارات الدولية ومنها قرار مجلس الأمن الدولي رقم 478 لعام 1980 م الذي يلزم دول العالم بعدم نقل سفاراتها إلى القدس، وقد صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم الخميس 21 ديسمبر 2017م برفض قرار ترامب الداعي لإعتبار القدس عاصمة لدولة الكيان الغاصب بنسبة 128 دولة رافضة للقرار و35 دولة امتنعت عن التصويت و9 دول مؤيدة له .

ماهية الصفقة وحقيقتها :

صفقة القرن هي عبارة عن الرؤية الصهيونية للسلام بين العرب والكيان الصهيوني الغاصب ، ليس من خلال إعادة الأراضي العربية المحتلة مقابل السلام - كما كان يُطرح في كل مبادرات السلام سابقاً - ولكن من خلال تصفية القضية الفلسطينية وتجاوز حل الدولتين الذي طرحته المبادرة العربية عام 2002م وطرح بدائل اقليمية اخرى عن حل الدولتين تشارك فيها الأردن ومصر مشاركة جيوسياسية ودول الخليج - وخصوصا السعودية - عن طريق التمويل واقامة البنى التحتية والمشاريع الاستثمارية . وقد تبلورت ملامح الصفقة - التي سرّبتها

صحف عبرية - من خلال الدراسة التي أعدها مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق اللواء احتياط (جيورا إيلاند) لصالح مركز بيحن - السادات للدراسات الاستراتيجية بعنوان : البدائل الإقليمية لفكرة دولتين لشعبين . و خلاصة تلك الدراسة ان حل القضية الفلسطينية لا يقع على عاتق الكيان الصهيوني لوحده - عن طريق اعادة الأراضي الفلسطينية و ضمان حق العودة للاجئين الفلسطينيين - لكن تلك المسؤولية تقع على عاتق الدول العربية مجتمعة - وخصوصاً الخليجية منها - التي ينبغي عليها أن تبذل جهوداً مضاعفة لرفع المعاناة عن الشعب الفلسطيني من خلال الدعم الاقتصادي ، وقد أوضح مهندس الصفقة (جيورا إيلاند) بأن إسرائيل باتت ترفض - أكثر من أي وقت مضى وبشكل واضح وصريح - فكرة اقتسام تلك المساحة الضيقة من الأراضي الفلسطينية وخصوصاً في الضفة الغربية من أجل إقامة دولتين لشعبين ، فذلك الحل لم يعد مقنعاً بالنسبة للمشروع الصهيوني التوسعي الذي يرى أن حدود دولته من النيل إلى الفرات وهو يضرب نظرية الأمن الصهيوني في مقتل من ناحية ويتجاهل الواقع الاستيطاني الحالي في الضفة الغربية الذي يحول دون اخلاء 290 الف مستوطن من منازلهم من الناحية الأخرى ، لما يترتب عليه من كلفة اقتصادية باهظة ويحرم العدو الصهيوني من عمقه الاستراتيجي والاهم من ذلك - كما يرى معد الصفقة مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق - أن حل الدولتين يفترض اخلاء مستوطنات الضفة الغربية وذلك بالنسبة لهم ينتهك الخصوصية الدينية والروحية التي تمثلها الضفة - يهودا والسامرة في التراث التلمودي - بالنسبة للشعب الإسرائيلي .

مع ملاحظة أن الصحف الإسرائيلية هي من سربت ملامح الصفقة وخصوصاً صحيفة اسرائيل اليوم المقربة من رئيس حكومة الاحتلال الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، والتي أجرى معها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب عدة مقابلات صحفية .

عصى السياسة وجزرة الاقتصاد :

تعتمد الصفقة على سياسة العصا والجزرة ، بمعنى : أن الولايات المتحدة الأمريكية والدول الخليجية سوف تُلوح بالعصا من خلال ممارسة الضغوط السياسية على السلطة الفلسطينية وحركة حماس ، ليوافقا على الصفقة - أو على الاقل يوافق أحدهما - مع التلويح بجزرة الوعود الاقتصادية الكبيرة التي ربما تجدي نفعاً إذا لم تنفع عصا السياسة ، وعلى سبيل المثال : إذا اعترضت حماس ومنظمة التحرير

السلطانية على بنود الصفة، فإن الولايات المتحدة سوف تستخدم عصا الضغوط السياسية وتمنع جزرة الاقتصاد من خلال الغاء كل دعمها المالي للسلطانيين، وسوف تمارس الضغوط الاقتصادية التي تضمن مستقبلاً عدم قيام أي دولة في العالم بتحويل الأموال للشعب السلطاني وإذا وافقت منظمة التحرير السلطانية على شروط بنود الصفة، ولم توافق حماس أو الجهاد الإسلامي، فسيتم اعتبار قادة حماس والجهاد الإسلامي مسؤولين عن عرقلة عقد الصفة، وفي أي حرب قادمة بين إسرائيل وحماس ستدعم الولايات المتحدة إسرائيل بشكل مباشر من خلال استهداف قادة حماس والجهاد الإسلامي شخصياً وإلحاق الأذى بهم، فمن غير المعقول كما يردد المرجون للصفة أن تحدد مجموعة من الأشخاص حياة ملايين الأشخاص.

أما إذا اعترضت إسرائيل على بنود الصفة - وهذا غير وارد على الإطلاق لأنها من صاغت بنودها اصلاً - فإن الدعم الاقتصادي لدولة الاحتلال سوف يتوقف على حد زعمهم .

ملاح الصفة وشكلها :

أولى تلك الملاح وأهمها هي الملاح الاقتصادي الذي يراد له أن يكون بديلاً عن الحل السياسي، من خلال ما طرحته الخطة وهو ما أعلن عنه بشكل واضح وصريح اليهودي جاريد كوشنر - صهر الرئيس ترامب وكبير مستشاريه في البيت الأبيض خلال ورشة المنامة المنعقدة في 26 يونيو 2019م - عن تمويل للخطة بواقع 20% والاتحاد الأوروبي 10% والدول الخليجية بنسبة 70% بناء على مداخيل كل دولة من أموال بيع النفط السنوية أي ان الدول الخليجية مع الاسف الشديد هي من باعت القضية السلطانية وهي التي دفعت ثمن ذلك البيع .

وبموجب تلك الصفة توقع اتفاقية ثلاثية بين دولة الاحتلال، ومنظمة التحرير السلطانية، وحركة حماس، وسيتم إنشاء دولة فلسطينية تسمى فلسطين الجديدة في يهودا والسامرة (الضفة الغربية) وغزة بعد توسيعها - باستثناء المستوطنات الإسرائيلية المقامة بالضفة - وعاصمتها أم الفحم على بعد 6 كيلو متر شرق القدس في الأراضي التي احتلها الكيان الغاصب عام 1967م.

تلك الدولة السلطانية المفترضة سوف تحصل على حكم ذاتي وظيفي موسع وستكون دولة بلا جيش - لديها فقط جهاز شرطة بأسلحة خفيفة - على أن تتولى دولة الكيان الغاصب حمايتها مقابل أن تدفع لها الدولة

السلطانية المال مقابل تلك اللماية من كل عدوان خارجي يجب أن تتحدد تكلفة هذا الدفع في مفاوضات بين الطرفين، بواسطة الدول الداعمة. والأنكى والأفطع أن تلك الدولة الجديدة لن تكون لها سيادة على مجالها الجوي والبحري والبري بل أن تلك السيادة سوف تكون خاضعة لدولة الكيان الغاصب .

عقب التوقيع على الاتفاقية ستقوم حركة حماس بإيداع جميع أسلحتها - ومن ضمنها الأسلحة الشخصية - لدى الدولة المصرية ، وسوف يستمر قادة الحركة وأعضائها في تلقي رواتب من الدول الداعمة حتى قيام الحكومة ، و في غضون عام ستجرى انتخابات ديمقراطية، وانتخاب حكومة فلسطين الجديدة، وسيكون بإمكان كل مواطن فلسطيني الترشح للانتخابات وبعد مرور عام على الانتخابات وإنشاء الحكومة، سيبدأ الكيان الغاصب بإطلاق سراح السجناء والأسرى الفلسطينيين بشكل تدريجي ولمدة ثلاث اعوام بعد توقيع الاتفاق .

سرقة التاريخ والتلاعب بالجرافية :

وبموجب الصفقة سوف تتنازل مصر عن مساحة 720 كيلو متراً مربعاً من أراضي سيناء وتضاف إلى غزة - مساحتها 365 كيلومتر مربع فقط ويعيش فيها مليون ونصف - ذات المساحة الصغيرة وهي تعادل ضعفي مساحة غزة على أن تعوض دولة الكيان الغاصب مصر بمساحة 600 كيلو جنوب غرب صحراء النقب وخصوصاً في منطقة وادي فيران . والمساحة المضافة من مصر إلى غزة تعادل ما نسبته 12% من مساحة الضفة الغربية التي سوف تتنازل عنها السلطة الفلسطينية لصالح الكيان الغاصب لتدخل ضمن أراضي دولة الكيان أي أن الكتل الاستيطانية سوف تبقى (بالضفة الغربية) كما هي اليوم في أيدي إسرائيل وستنضم إليها مستوطنات معزولة، وسوف تتوسع مناطق الكتل لتصل إلى المستوطنات المعزولة التي ستضاف إليها.

والتوسيع المفترض لغزة الكبرى - وفقاً لصفقة القرن - سوف يمنح القطاع مساحة إضافية تمكن الدولة الفلسطينية من إنشاء مطار دولي كبير بمواصفات عالمية متطورة - يقع على بعد 25 كيلو متر من حدود دولة الكيان الصهيوني - وستمكنهم كذلك من بناء مدينة جديدة تستوعب مليون مواطن غزوي وسوف تشكل تلك المدينة منطقة تطور طبيعي لسكان غزة والضفة الغربية مستقبلاً . وسوف يمنح التوسع المفترض غزة مساحة إضافية من السواحل المطلّة على البحر الأبيض المتوسط تقدر مساحتها بـ 24 كيلومتر ، بكل ما يترتب على ذلك التوسيع من

مزايا - كالحصول على مياه اقليمية تصل إلى 9 اميال بحرية - سوف تمكنها من اقامة ميناء دولي كبير يربط دول أوروبا بدول الخليج ويسهل التبادل التجاري بينها وتفترض الصفقة أن ذلك الميناء سوف يكون على غرار ميناء سنغافورة القائم على التجارة الدولية والتعاملات المصرفية المتقدمة وصناعات الهاي تكنولوجي .

في غضون خمس سنوات يجري إنشاء ميناء بحري ومطار في فلسطين الجديدة، وحتى ذلك الحين يستخدم المطار والموانئ البحرية الموجودة ضمن إسرائيل وسيقام (أوتستراد) بارتفاع 30 متراً يربط الضفة الغربية وقطاع غزة تسهم فيه: الصين بنسبة 50٪، اليابان 10٪، كوريا الجنوبية 10٪، أستراليا 10٪، كندا 10٪، والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي 10٪.

وستكون الحدود بين فلسطين الجديدة ودولة الكيان الغاصب مفتوحة أمام مرور المواطنين والبضائع كما هو الحال مع الدول الصديقة.

الرابحون والخاسرون من الصفقة :

يجب القول بداية أن صفقة القرن هي بالنسبة للعدو الصهيوني صفقة رابحة وهي تمثل للفلسطينيين والعرب صفقة بكل المقاييس ، فالرابح الأول في الصفقة هو العدو الصهيوني الذي سوف يحصل على كل شيء و لن يتنازل عن شيء ، لأنه من خلال تلك الصفقة المشؤومة سوف يحصل على الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة الكيان الغاصب وسوف يتم نقل السفارات إليها ، وسيحتفظ الكيان الغاصب من خلال تلك الصفقة في الضفة الغربية بحوالي 12% من اراضيها وتلك المساحة أكبر بكثير من أي مساحة يمكنه الحصول عليها في أي تسوية عادية وتلك المساحة هي التي وصفها (ايهود باراك) في مؤتمر في منتجع كامب ديفيد عام 2000م بالمساحة الحيوية اللازمة للحفاظ على أمن اسرائيل ، وكذلك سوف يتم الإعلان عن موافقة الرئيس الأمريكي بضم الكتل الاستيطانية في الضفة الغربية إلى دولة الكيان الإسرائيلي ونقطة الخلاف الوحيدة بين الرئيس الأمريكي ورئيس الحكومة الإسرائيلية على نسبة الضم المفترضة ، لأن الجانب الأمريكي يرى ضم ما نسبته 10% ، بينما يرى الجانب الإسرائيلي الا تقل نسبة الضم عن 15% ، والحصول على تلك المساحة يضمن للكيان الغاصب بتقليص دراماتيكي في أعداد المستوطنين الواجب عليه اخلاؤهم من الضفة من 100 الف مستوطن - في حال التوقيع على أي تسوية عادية - إلى 30 الفاً فقط من خلال الصفقة المشؤومة . وتلك المساحة سوف تسمح للكيان الصهيوني

بأن يحتفظ داخل حدوده المغتصبة بأماكن ذات أهمية دينية وروحية وتاريخية بالنسبة له مثل مستوطنتي عوفرا وكريات أربع وسوف يضمن الاحتفاظ بمستوطنة أريئيل ويوفر الأمن لسكانها .
والشيء الأخطر هو الاعتراف بعبرية الدولة الصهيونية باعتبارها دولة لكل يهود العالم وهذه يعني حرمان العرب المتواجدين على أراضيهم داخل الكيان المحتل من أبسط الحقوق .

أما بالنسبة لملف التطبيع مع العدو الصهيوني فإن الصفقة توتي الجانب الإسرائيلي كل ما ينشده من زمان وهو مجانية التطبيع بينه وبين الدول العربية ، ذلك أن الصفقة تشترط أن يبدأ التطبيع مع الكيان الغاصب قبل توقيع الصفقة تشجيعاً له لقبول الصفقة والتوقيع عليها وهذا الأمر هو بخلاف كل اتفاقيات السلام الموقعة بين العرب والكيان الغاصب والتي كانت ترى التطبيع نتيجة تالية لتلك الاتفاقية وليس مقدمة لها . وسوف تحتفظ دولة الكيان الغاصب من خلال تلك الصفقة بضمانات أمنية ، برية وجوية ، وبحرية على حدودها من قبل الدولة الفلسطينية الجديدة ومن قبل الأطراف الموقعة والضامنة بحيث يبقى الكيان الصهيوني على صلاحيات الأمن القسوى بيده لحالات الطوارئ ، مما يفقد الدولة الفلسطينية السيادة ويجعلها تدفع للكيان الغاصب مبالغ مالية سنوية مقابل تلك الحماية المزعومة .

كما أن إسرائيل قد ضمنت من خلال تلك الصفقة عدم الحديث عن ملف اللاجئين والذي يعتبر بالنسبة لها من أخطر الملفات المتعلقة بالقضية الفلسطينية وبالصراع العربي الصهيوني ، لأنه يرتبط بمسألة الصراع الديمغرافي والسبب من وجهة النظر الإسرائيلية يرجع إلى ان غالبية الشعب الفلسطيني لاجئ ومسألة اللجوء ترتبط بكل بيت وشارع وقرية ومدينة فلسطينية وهو يجعل من حق العودة للمهجرين قسراً شرطاً لأي عملية سلام ، كما ان المكون الرئيسي لأصحاب القرار الفلسطيني - سواء السابقين أو الحاليين - هم من أبناء اللاجئين وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الرئيس السابق ياسر عرفات والحالي محمود عباس و أحمد ياسين ، فتحي الشقاقي ، عبدالعزيز الرنتيسي ، محمد دحلان وإسماعيل هنية هم من أبناء اللاجئين .

أما الخاسرون مادياً ومعنوياً فهم العرب الذين باعوا كل شيء وبدل أن يقبضوا ثمن ما بعوه سوف يسددون الثمن لدولة فلسطين الجديدة ومصر والأردن ولبنان نيابة عن الكيان الغاصب وارضاءً لترامب وجاريد كوشنر . أما الشعب الفلسطيني فهو الخاسر الأكبر من هذه الصفقة ،

لأنه سوف يخسر التاريخ من خلال التنازل عن القدس التي سوف تصبح عاصمة الكيان الغاصب وسوف يبيع الجغرافيا من خلال التنازل عن الأراضي المحتلة عامي 1948 و1967م وسوف يتنازل عن حق العودة لأكثر من 5 مليون ونصف لاجئ فلسطيني من المفترض بحسب الصفقة أن يتم تجنيسهم في الأردن ولبنان وسوريا وفي باقي أراضي الشتات التي يعيشون فيها في كل اصقاع الأرض.

بالنسبة للأطراف الأخرى - وخصوصا مصر والأردن - فإن الصفقة المزعومة تروج بأن مصر والأردن سوف تستفيدان من الصفقة بشكل مباشر - وسوف تستفيد بعض دول المنطقة منها بشكل غير مباشر - فالنسبة لمصر فإنها موعودة حال موافقتها على التنازل عن مساحة 720 كيلو متر من سيناء وضمها إلى غزة بالحصول على مساحة 600 كيلو متر من صحراء النقب وسوف تسمح لها إسرائيل بشق نفق بطول 10 كيلو متر يربط بينها وبين الأردن من الشرق إلى الغرب ، يخضع ذلك الطريق للسيادة المصرية ويمكن ان يتوسع الطريق مستقبلاً شرقاً باتجاه العراق وجنوباً باتجاه السعودية ، وبمحاذاة ذلك النفق سوف يتم مد خط سكك حديد وانبوب يمكن ان ينقل النفط من دول الخليج إلى البحر الأبيض المتوسط في الميناء العملاق المزمع تشييده في غزة بعد خمس سنوات من الاتفاق . كما ان تنازل مصر عن تلك البقعة من سيناء سوف يقابل بموافقة الكيان الغاصب على إجراء تعديلات محدودة في الملحق العسكري لاتفاقية السلام الموقعة بينها وبين إسرائيل والتي تُقيد حركة الجيش المصري على سيناء، بحيث تستطيع القيادة المصرية أن تقول للشعب المصري بأن تنازلها عن نسبة 1% من مساحة سيناء سوف يؤمن لها أن تبسط سيادتها بالكامل على سيناء بالشكل الذي يسمح بتواجد قوات مصرية على الحدود بالشكل الذي يؤمن المصالح الاقتصادية المزعومة لمصر. بالإضافة للوعود التي حصلت عليها القيادة المصرية من البنك الدولي بقروض بمليارات الدولارات خلال السنوات القادمة من أجل افتتاح مشاريع تحلية المياه وتنقيتها - خصوصا بعد بناء سد النهضة في اثيوبيا والذي سيقصص بالفعل حجم المياه الواصلة لها بعد افتتاحه عام 2022م - وتعهد صهيوني بالمساهمة في تلك المشاريع من خلال خبراتها المكتسبة في هذه المجال .

وقد حصلت مصر على وعود فرنسية - دعهما اللوبي الصهيوني هناك - بمساعدتها على الحصول على الطاقة النووية للأغراض السلمية من خلال بناء مفاعلات نووية لإنتاج الطاقة الكهربائية .

في حال تمت موافقة مصر على الصفقة وبدأ التنفيذ فإن القيادة المصرية موعودة بالحصول على جائزة نوبل للسلام مع احتفاظ الدولة المصرية بالحق للدعوة لمؤتمر سلام دولي على أراضيها بغرض استعادة مكانتها المفقودة على الساحة الدولية. هذا جل ما روجت له الصفقة لاستدراج القيادة المصرية للموافقة على تبني بنودها والمشاركة فيها .

أما بالنسبة للمكاسب الأردنية التي ترسمها الصفقة ، فأهمها الترويج بالقول بأن الربح الأكبر فيها سوف يكون الأردن ، لأنه لن يدفع أي شيء في مقابل حصوله على الأموال والاستثمارات في البنية التحتية وخصوصاً منظومة الطرق والسكك الحديدية وانبوب النفط التي ستربطها بميناء غزة الدولي من جهة الغرب - عبر النفق المصري الأردني السابق الذكر - وكل تلك البنى التحتية ستوفر لها اطلالة مجانية على أوروبا من خلال ربطها بذلك الميناء وسوف تربطها سكك الحديد وانبوب النفط بالعراق وبدول الخليج العربي من الجهة الجنوبية والشرقية أيضاً . ومنظومة الطرق والانفاق والجسور التي سوف تبني خلال الخمس سنوات سوف تجعل منها - بحسب مروجي الصفقة - منطقة ترانزيت بين أوروبا وبين العراق ودول الخليج وذلك سوف يخلق طفرة اقتصادية غير مسبوقة في اقتصادها الذي يعاني من شحة الموارد ، لأنه سوف يؤدي لخلق فرص عمل عديدة لسكانها وسوف يوفر لها العديد من الموارد المالية من خلال مرور البضائع عبرها .

وتروج الصفقة بان الأردن سوف يستفيد من خلال التخلص من اعباء 70 الف عائلة فلسطينية - من اصول غزاوية نزحوا اليها بعد احتلال الكيان لغزة بُعيد نكسة 1967م - وهي التي تُقيم على أراضيها بدون رقم وطني ، بعد أن توفر لها فرص عمل في المدينة الجديدة التي ستبنى في غضون خمس سنوات في غزة الكبرى بعد اقتطاع اجزاء من سيناء اليها .

أفاق ومآلات صفقة القرن :

يمكن القول ان صفقة القرن ولدت ميتة وأن فشلها سبق الإقدام على تنفيذها وجعلها امراً واقعاً وذلك لوجود عدة اسباب موضوعية أدت لفشلها ونهايتها قبل بدء تنفيذها ، واهمها الهبة الشعبية العربية والإسلامية والتي خرجت بمناسبة ذكرى يوم القدس العالمي - آخر جمعة من شهر رمضان 1440هـ - في العديد من العواصم العربية والإسلامية وفي المدن الاوربية والامريكية والأسترالية وبشكل غير مسبوق في كل المناسبات السابقة بحيث زاد عدد الخارجين في تلك

المناسبة وزادت المدن وتوسعت وخصوصاً في المدن الأمريكية والاستراتيجية والنيوزيلاندية وفي ذلك الخروج الكبير والتوسع الغير مسبوق رسالة من الشعوب العربية والإسلامية برفضها لصفقة القرن وتأكيدها على أهمية القضية الفلسطينية في العقل الجمعي العربي الإسلامي وبمركزية القدس باعتبارها عاصمة للدولة الفلسطينية . كما أن الحضور الهزيل والتمثيل المنخفض والتغطية الإعلامية الباهتة لورشة البحرين الاقتصادية - أواخر يونيو 2019 - وعدم حضور الحكومة الفلسطينية ومن يمثلها أو من ينوب عنها وكذلك توحد مختلف الفصائل الفلسطينية واهمها حركة فتح وحماس والجهاد الإسلامي على رفض تلك الصفقة وتمسكها بحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وأهمها حق عودة اللاجئين واعتبار القدس عاصمة فلسطين التاريخية والأبدية كان مؤشراً لفشل الصفقة.

ويضيف السيد حسن نصر الله إلى السبب السابق أسباباً أخرى لفشل صفقة القرن ، ذكرها في المقابلة التي أجرتها معها قناة المنار - مساء الجمعة 12 يوليو 2019م - ومنها :

صمود ايران في وجه العقوبات والتهديدات الامريكية و صمود محور المقاومة ككل أمام تلك التهديدات وكذلك فشل المشروع الامريكي في سوريا والذي كان يهدف لأضعافها وتقسيمها وكذلك انتصار محور المقاومة على الإرهاب في العراق و صمود الشعب اليمني امام تحالف العدوان السعودي الأمريكي والسبب الأخير أولى له السيد حسن عناية خاصة ، لأن انتصار السعودية في عدوانها على اليمن كان سيجعل منها الرافعة العربية للصفقة - بحسب قوله - اما بعد ذلك الفشل فإنه لا توجد رافعة عربية وبحسب كلام السيد حسن : من يجرؤ من الملوك والحكام العرب أن يخرج في العلن ليحمل صفقة القرن ؟ حتى وإن كانوا تحت الطاولة يتآمرون على فلسطين .

بالإضافة إلى ما سبق يبرز الرفض الدولي الواسع لصفقة القرن وللمقدمات التي سبقتها وروجت لها من خلال الشرعة الدولية التي رفضت قرار الرئيس الأمريكي ترامب باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الامريكية اليها وقد صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم الخميس 21 ديسمبر 2017م على القرار وجاءت نسبة التصويت برفض قرار ترامب بنسبة 128 دولة رافضة للقرار و35 دولة امتنعت عن التصويت و9 دول مؤيدة لقرار ، بالإضافة لرفض الدول الأوروبية وخاصة المؤثرة منها - المانيا ، فرنسا ، بريطانيا - لقرار ترامب

ورفضها كذلك لتوسيع المستوطنات الإسرائيلية في الضفة ومناداتها بحل الدولتين التي جاءت صفقة القرن لتجاوزها .

كذلك الموقف الأردني من الصفقة قلق وغير واضح ، والسبب في ذلك من وجهة نظر قيادتها هو عدم اشراكها في إعداد الصفقة او الاطلاع على جل بنودها في أحسن الاحوال بالشكل الذي يحافظ على أمنها القومي ، واكثر ما تخشاه القيادة الأردنية أن تكون وطناً بديلاً للاجئين الفلسطينيين ، كم تخشى كذلك من انهيار السلطة الفلسطينية - لأي سبب كان - مستقبلاً فتجد نفسها مسئولة مرة أخرى عن إدارة الضفة الغربية كما حدث معها سابقاً بعد نكبة 1948م . والشيء المهم والمعول عليه أن الغالبية العظمى من الشعوب العربية والإسلامية - ما عدى بعض الشعوب التي تتبع أنظمة الحكم المتصهينة فيها - في الوقت الراهن أصبحت على درجة عالية من الوعي من خلال البث الفضائي ووسائل التواصل الاجتماعي والدراية بالمؤامرات التي تستهدف القضية الفلسطينية وهي تختلف عن الشعوب العربية التي كانت موجودة عام 1916م حال توقيع اتفاقية سايس بيكو أو حال توقيع اتفاقية سان ريمو عام 1923م . ويضاف كذلك إلى أسباب فشل الصفقة الاشكاليات التي تعاني منها دولة الكيان الصهيوني الغاصب بسبب غموض مصير رئيس الوزراء الصهيوني نتنياهو بسبب التهم الموجه له ولزوجته والمتعلقة بالفساد واستغلال منصبه للحصول على مكاسب شخصية واحتمال صدور حكم قضائي ضده ، علماً بأنه يُعتبر بالنسبة لدولة الكيان اخر القيادات التاريخية التي يعول عليها ، ومن سيأتي بعده لن يكون بمستواه وإنما ستكون - بحسب التحليلات الصحف الإسرائيلية - قيادات تنقصها الخبرة وذات فكر يميني متطرف ومن الممكن أن تتورط بحروب مع حزب الله ومع حماس تؤثر على اتمام الصفقة أو تعطّلها في المستقبل . ويضاف اليها ايضاً اشكاليات داخل الإدارة الأمريكية الحالية ، لأن إدارة الرئيس ترامب والمحاط بمستشارين غالبيتهم ولأنهم لدولة الكيان الصهيوني أكثر من ولأنهم لتلك الادارة - مثل مستشار الامن القوم جون بولتون ووزير الخارجية بومبيو وجاريد كوشنر كبير مستشاري البيت الأبيض - جعلوا ادارة ترامب تتخذ خطوات متسارعة ومتسارعة لإتمام صفقة القرن وبدون تنسيق اقليمي ودولي مما أدى إلى معارضة اقليمية تركية لتلك الصفقة ومعارضة دولية لها متمثلة بدول الاتحاد الاوربي ولمقدماتها والمتمثلة بنقل السفارة الامريكية للقدس تلك

الخطوة ادت إلى فجوة كبيرة في المواقف وأزمة ثقة بين تلك الدول وبين الولايات المتحدة وكل ذلك يؤشر في المستقبل على فشل صفقة القرن . كل تلك المقدمات الموضوعية سوف تكون نتيجتها الطبيعية والمنطقية فشل صفقة القرن وذهاب كل من روج لها إلى مزبلة التاريخ .

قائمة المصادر والمراجع

- أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني : الملل والنحل .تح : عبدالعزيز محمد الوكيل . دار الفكر ، بيروت . (د - ت) .
- أحمد محمود صبحي : الزيدية . منشأة المعارف ، الاسكندرية . ط / 1980م .
- أحمد الرسيوني : الفكر الإسلامي وقضايا السياسة . دار الكلمة للنشر ، القاهرة . ط / 2013م .
- احمد قائد الشعبي : وثيقة المدينة ، المضمون والدلالة ، الأمة ، قطر ، العدد (110) ذو القعدة / 1426هـ .
- إدوارد سعيد : الاستشراق : المفاهيم الغربية للشرق . تر : محمد عناني . دار رؤية للنشر ، القاهرة . ط / 2006م .
- إدريس هاني : العولمة وخطر التجويف القيمي . فصلية الكلمة اللبنانية ، عدد 61 / خريف 2008م .
- اسماعيل علي محمد : مدخل إلى دراسة النظم الإسلامية . دار الندى ، اسطنبول ، تركيا . ط / 2014م .
- أحمد عبدالرحيم السابح : الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة . ط / 1996م .
- بسام جرار : دراسات في الفكر الإسلامي . مركز نون للدراسات ، البيرة / فلسطين . ط / 2006م . بسطامي محمد سعيد ، مفهوم تجديد الدين ، دار الدعوة ، الكويت . ط / 1984م .
- حسن حنفي : جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي . مجلة التسامح ، سلطنة عمان . العدد 13 ، شتاء 2006م .
- حسن الصفار : الحوار والانفتاح على الآخر . دار الهادي ، بيروت . ط / 1425هـ - 2004م .
- حسن الصفار : كيف نقرأ الآخر . الدار العربية للعلوم ، بيروت . ط / 1425هـ - 2004م .
- حليلة بوكروشة : معالم تجديد المنهج الفقهي . كتاب الامة ، قطر . العددان : 90 - 91 . رجب - رمضان 1423هـ .
- حيدر محب الله : مشروعية تجديد الفكر الديني ، مجلة الكلمة ، بيروت . عدد 62 ، شتاء 2009م .
- جمال سلطان : تجديد الفكر الإسلامي . دار الوطن الرياض . ط / 1412هـ .
- جمال الدين عطية : الفكر الإسلامي بين الواقع والمثال . دار الهادي ، بيروت . ط / 2001م .
- زيد بن علي الفضيل : الزيدية علامات وأفكار . مجلة الكلمة ، بيروت . عدد 61 خريف 2008م .
- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم . مراجعة : حسن تميم . مكتبة الحياة ، بيروت . (د - ت) .

- عباس محمود العقاد .التفكير فريضة اسلامية .دار نهضة مصر . القاهرة . ط6 / 2007م .
- عبدالله بن محمد إسماعيل حميد الدين : الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات . مركز الرائد ، للدراسات والبحوث ، صنعاء . ط2 / 2006م .
- عبدالله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1 / 1997م .
- عبدالكريم بكار : مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي . در القلم، دمشق . (د - ت) .
- عبدالكريم بكار : تكوين المفكر خطوات عملية . دار السلام ، القاهرة . ط2 / 2010م .
- عبدالمتعال محمد الجبري : الاستشراق وجه الاستعمار الفكري . مكتبة وهبه ، القاهرة . ط1 / 1995م .
- عبدالعزيز المقالح : قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة . مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء . ط2 / 2014م .
- عبدالرحمن بن خلدون : المقدمة : دار الفكر ، بيروت . (د - ت) .
- علي علي آل موسى : ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين . كتاب البصائر، بيروت رقم (1) 2005م ، بيروت . 188.
- غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم (دون ذكر دار النشر) ط4 / 2004م .
- فهمي هويدي : القرآن والسلطان . دار الشروق ، القاهرة . ط4 / 1994م .
- ماجد الغرباوي : اشكاليات التجديد . دار الهادي ، بيروت . (د - ت) .
- محسن عبدالحميد : تجديد الفكر الإسلامي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ولاية فرجينيا ، أمريكا . ط1 / 1995م .
- محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام ، دار نهضة مصر ، القاهرة . ط3 / 2005م . (14) عدنان - محمد إمامه : التجديد في الفكر الإسلامي . دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية . ط1 / 1424هـ .
- محمد أحمد عبدالقادر : بين الأصالة والمعاصرة : قراءة في مسار الفكر الإسلامي . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية . ط/ 1994م .
- محمد عمارة : الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكي . مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة . ط2 / 2007م .
- محمد عمارة : أزمة الفكر الإسلامي المعاصر . دار الشرق الاوسط للنشر ، القاهرة (د - ت) .
- محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة . دار نهضة مصر ، الاسكندرية . ط4 / 2004م .
- محمد البهي : الفكر الإسلامي في تطوره ، دار الفكر ، مصر ط/ 1971م .

- محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي .مكتبة وهبة ، القاهرة . ط4/ (د - ت) .
- محمد ابراهيم الفيومي : الاستشراق رسالة استعمار . دار الفكر العربي ، القاهرة . ط/1993م.
- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي ، القاهرة . (د - ت) .
- محمد مهدي شمس الدين : الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي . المؤسسة الدولية ، بيروت . ط1/1999م.
- محمد بشاري : قراءات نقدية في القراءات العربية للعولمة، فصلية الكلمة ، بيروت . العدد 57، خريف 2007م .
- مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية ، عالم المعرفة الكويتية عدد252، ديسمبر 1999م.
- مصطفى محمود .القرآن محاولة لفهم عصري .دار العودة .بيروت. ط/1979م .
- نهضة اليابان : ترجمة :نديم عبده وفواز خوري، شركة المطبوعات ، بيروت ، ط2/ 1996م .
- نصر حامد أبو زيد. مفهوم النص .المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .المغرب .ط6/2005م.
- يوسف القرضاوي : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد . مكتبة وهبه ، القاهرة . ط2/ 1999م